الباب الخامس والعشرون

أوربا تفيق من رقدتها

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

بيزنطية

اختتم ألكسيوس الأول كمنينوس Alexius I Comnenus حكمه الطويل (١١٠٨ – ١١١٨) على أثر مؤامرة من طراز المؤامرات التى اختصت بها بيزنطية ، وذلك بعد أن قاد سفينة الإمبراطورية بنجاح فى حروب الترك والنورمان ، وفى الحرب الصليبية الأولى . وكانت ابنته الكبرى أنا كمنينا Anna Comnena مضرب المثل فى العلم ، كما كانت ملمة بخلاصة الفلسفة ، وكانت شاعرة موهوبة ، وسياسية ذات دهاء ، ومؤرخة مهذبة تميل فى كتابتها إلى الكذب والاختلاق . ولما خطبت إلى ابن الإمبراطور ميخائيل السابع حسبت أنها بحكم مولدها وبفضل جمالها ومواهبها الذهنية قد اختارتها الأقدار للتربع على عرش الإمبراطورية ؛ ولم تكن تغفر قط لأخيها چون John أنه ولد وارث العرش ، فدبرت مؤامرة لاغتياله ، ولكن تدبيرها افتضح وعفى عنها ، وآوت إلى أحد الأديرة ، وكتبت سيرة أبيها فى قصة نثرية تدعى ألكسياد Alexiad . وأدهش چون كمنينوس (١١١٨ – ١١٤٣) أوربا بالتمسك بالفضائل الشخصية ، وبكفايته الإدارية ، وبانتصاره فى حروبة ضد أعدائه من الوثنيين والمسيحيين والمسلمين ، وخيل إلى الناس حيناً من الدهر أنه سيعيد الدولة إلى ما كانت عليه من مجد وسعة رقعة ، ولكن خدشا من سهم مسموم فى كنانته قضى على حياته وأحلامه .

وكان ابنه مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ — ١١٨٠) إله الحرب مجسما ، وهب نفسه للحرب ومتعتها ؛ يسير على الدوام فى طليعة جنوده ؛ ويرحب بالمبارزة الفردية ، وقد انتصر فى كل واقعة خاض غمارها إلا الأخيرة من هذه المواقع . وكان فى ميدان القتال رواقيا فى مبادئه ، أما فى قصره فكان أبيقوريا ، مترفاً فى طعامه ولباسه ، سعيداً فى عشقه الحرام لابنة أخيه . وعادت الآداب والعلوم إلى سابق ازدهارها بفضل ترفه ومناصرته ؛ وكانت سيدات البلاط يشجعن المؤلفين ، وقد نزلن هن أيضا من عليائهن ليقرضن الشعر ؛ وجمع زناراس Zanaras فى أيامه كتابه الضخم الذى أسماه موجز التاريخ . وشاد مانويل لنفسه قصراً جـــديداً هو قصر البلاشرنى Blachernae على شاطئ البحر عند طرف القرن الذهبى ؛ وكان أودم الدويلى Odom of Deuil يظنه « أجمل بناء فى العالم ، فقد كانت عمده وجدرانه مغطاة إلى نصفها بالذهب ، ومرصعة بالجواهر التى كانت تتلألأ حتى فى ظلام الليل »(١) . لقد كانت القسطنطينية فى القرن الثانى عشر صورة أخرى من النهضة الإيطالية .

وتطلبت فخامة العاصمة ، والحروب الكثيرة التى شنتها الإمبراطورية العجوز لتصد عنها الموت ، تطلبت هذه وتلك ضرائب فادحة ألقاها المترفون على المنتجين لضرورات الحياة . وكانت النتيجة إن زاد فقر الفلاحين ، واستسلموا للاسترقاق الأرضى ، وأن سكن عمال المدن اليدويون فى مساكن قذرة كثيرة الضجيج ، يُرتكب فى ظلماتها وأقذارها ما لا يحصى من الجرائم .

وكانت حركات ثورية شبه شيوعية تضطرم نارها فى قلوب صعاليك المدن(٢) ، ولكن هذه الحركات قد عفا ذكرها لكثرة ما حدث من أمثالها على مر الأيام . وكان استيلاء الصليبيين على فلسطين قد فتح ثغور الشام لتجارة اللاتين ، وخسرت القسطنطينية ثلث تجارتها البحرية التى استولت عليها المدن الناهضة فى إيطاليا . وكان من أعظم الآمال التى تداعب قلوب المسيحيين والمسلمين

على السواء أن يستولوا على ما فيها من الكنوز التى أنفقت فى جمعها ألف عام ؛ وحدث أن زار المدينة أحد المسلمين الصالحين فى أيام مانويل الزاهرة فدعا الله أن يمن على المسلمين بفضله وكرمه فيجعل القسطنطينية عاصمة بلاد الإسلام(٣) . وحتى البندقية نفسها ربيبة بيزنطية دعت فرسان أوربا لأن ينضموا إليها فى انتهاب ملكة البسفور .

ولم تعش المملكة اللاتينية التى أقامتها الحملة الصليبية الرابعة فى القسطنطينية إلا سبعاً وخمسين سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١) ، ذلك أن المملكة الجديدة لم تقو على البقاء إلا ريثما كانت بيزنطية المتحفزة للثأر منها تعوزها الوحدة وقوة السلاح . أما هى فلم تكن لها أصول تقوم عليها من عنصرية الشعب أو دينه أو عاداته ، وكانت تكرهها الكنيسة اليونانية التى خضعت مكرهة لرومة ، ويضعضعها انقسامها إلى إمارات إقطاعية تدعى كل منها لنفسها السيادة الكاملة ، وتعوزها جميعاً التجربة التى لا غنى عنها لتنظيم اقتصادياتها الصناعية والتجارية ، وتهاجمها الجيوش البيزنطية من خارجها ، وتحرقها المؤامرات فى داخلها ، ولا تستطيع أن تستمد من سكانها المعادين لها ما تحتاجه من المال للدفاع العسكرى عن كيانها .

لكن الغزاة الفاتحين كان مصيرهم فى بلاد اليونان خيراً من مصيرهم فى القسطنطينية . ذلك أن الفرنجة ، والبنادقة ، وغيرهم من الأشراف الطليان عجلوا بتقسيم تلك البلاد التاريخية إلى أقسام إقطاعية ، وشادوا القصور الجميلة فوق التلال العالية تشرف على ما حولها من المواقع ، وشرعوا وأظهروا فى حكم السكان المتراخين المجدين حكما حازما جريئا . وحل مطارنة الكنيسة اللاتينية محل أساقفة المذهب الأرثوذكسى الذين نفوا من البلاد ، وأنشأ الرهبان القادمون من بلاد الغرب على التلال أديرة كانت من روائع الفن ومستودعاً لكنوزه . وقام رجل فخور من الفرنجة فلقب نفسه « دوق أثينة » ، وجاء شيكسبير فى غير منطق سليم وأخطأ خطأ يغتفر له ، ورجع به إلى الوراء ألفى عام ، وسماه ثيسيوس ، ولكن الروح

الحربية التى أقامت هذه الممالك الصغيرة كانت هى بعينها القاضية عليها لكثرة ما ثار بينها من المنازعات والأحقاد القاتلة ؛ فقد كانت الأحزاب المتنافسة يحارب بعضها بعضا على تلال المورة وسهول بوءوتيا حرباً طاحنة قضت عليها جميعا ؛ ولما أن غزت اليونان « الشركة القطلونية Catalian Company » الكبرى المؤلفة من جماعة المغامرين القادمين من قطلونيا (١٣١١) ذبحت زهرة فرسان الفرنجة فى المعركة التى دارت قرب نهر سفسوس Cephisus ، وأضحت المنهوكة القوى ألعوبة فى أيدى القراصنة الأسبان .

وبعد عامين من سقوط القسطنطينية أقام ثيودوز لسكاريس Theodoae Lescaris حمو ألكسيوس الثالث حكومة بيزنطية فى منفاه فى نيقية . ورحبت بحكمه جميع الأناضـــول بما فيها مدائن بورصة ، وفلدلفيا ، وأزمير ، وإفسوس الغنية ؛ وأفاءت إدارته الحازمة القديرة العادلة على هذه الأقاليم رخاء جديداً ، وبعثت فى الآداب اليونانية حياة جديدة ، وأحيت فى قلوب الوطنيين اليونان آمالا جديدة . وأنشأ ألكسيوس كمنينوس ابن مانويل فى شرق تلك البلاد وفى طربزون بالذات مملكة بيزنطية أخرى ، ونشأت مملكة ثالثة فى إپيروس برياسة ميخائيل أنجلوس ؛ وضم چون فتاتزيس John Vatatzes زوج ابنه لسكاريس وخليفته (١٢٢٢–١٢٥٤) جزءاً من إپيروس إلى مملكة نيقية ، واسترد سالونيك من الفرنجة (١٢٤٦) ، وكاد يستولى على القسطنطينية نفسها لولا أنه عاد إلى آسية الصغرى لأنه عرف أن البابا إنوسنت قد دعا المغول الزاحفين غربا إلى الإغارة على بلاده من جهة الشرق (١٢٤٨) . ورفض المغول مشروع البابا محتجين بتلك الحجة الساخرة وهى أنهم لا يريدون أن يعملوا على « إثارة الأحقاد بين المسيحيين بعضهم وبعض »(٤) . وكان حكم الملك چون الطويل الأمد من خير الأحكام فى التاريخ وأعظمها تشريفاً لصاحبها ، فقد استطاع أن يخفف الضرائب ، ويشجع الزراعة ، وينشئ المدارس ، ودور الكتب .

والكنائس ، والأديرة ، والمستشفيات وملاجئ لكبار السن والفقراء ، على الرغم من الحروب الكثيرة النفقات التى خاض غمارها ليعيد بها وحدة الإمبراطورية البيزنطية[٥] . وازدهرت الآداب والفنون فى عهده ، وأصبحت نيقية فى القرن الثالث عشر من أكثر مدن العالم ثروة وأعظمها جمالا .

وكان ابنه ثيودور لسكاريس الثانى (١٢٥٤ — ١٢٥٨) شغوفاً بالعلم معتل الجسم ، عالماً ومضطرب العقل ؛ مات بعد حكم قصير ، واغتصب العرش بعد موته ميخائيل پليولوجوس Michael Paleologus زعيم الأشراف المتذمرين (١٢٥٩ — ١٢٨٢) . وإذا جاز لنا أن نصدق المؤرخين قلنا إن ميخائيل كان متصفا بكل نقيصة — كان « أنانيا ، منافقاً . . . كذوباً بغريزته ، مغروراً ، قاسيا ، شرهاً »[٦] . ولكنه كان واسع الحيلة شديد الدهاء ، دبلومسياً ، معقود لواء النصر ، استطاع بمعركة واحدة أن يثبت قدمه فى إپيروس ، كما استطاع بحلفه مع جنوى أن يفوز بمعونتها على البنادقة والفرنجة فى القسطنطينية ؛ وأمر قائده استراتيجوپولس Strategopulus أن يتظاهر بالهجوم على العاصمة من ناحية الغرب . وزحف استراتيجولس على المدينة ولم يكن معه أكثر من ألف رجل ، فلما وجد حاميتها خفيفة دخلها واستولى عليها دون عناء ، وفر الملك بلدوين الثانى هو وحاشيته ، وتبعه رجال الدين اللاتين الذين كانوا فى المدينة وقد استولى عليهم رعب كانوا خليقين به . وعبر ميخائيل البسفور وهو لا يكاد يصدق النبأ وتوج إمبراطوراً (١٢٦١) ، وهكذا بعثت الإمبراطورية البيزنطية من رقادها ، وكان الناس يظنونها قد قضت نحبها ، واستعادت الكنيسة اليونانية استقلالها ، وظلت الدولة البيزنطية الفاسدة قائمة تصرف شئونها قرنين آخرين احتفظت فيهما بالآداب القديمة ونقلتها إلى العالم الغربى ، وصدت رغم ضعفها جيوش المسلمين فى تلك الفترة من الزمان .

الفصل الثانى

الأرمن (١٠٦٠ – ١٣٠٠)

وحدث حوالى عام ١٠٨٠ أن غادرت أسر أرمنية كثيرة بلادها لعدم رضائها عن سيطرة السلاجقة عليها ، وعبرت جبال طوروس ، وأنشأت مملكة أرمينية الصغرى فى قليقية . وبينما كان الأتراك ، والكرد ، والمغول يحكمون أرمينية الحقيقية ، احتفظت الدولة باستقلالها مدى ثلاثة قرون ؛ واستطاع ليو الثانى Leo II فى حكمه الذى دام أربعة وثلاثين عاما (١١٨٥ ١٢١٩) أن يصد هجمات سلاطين حلب ودمشق ، ويستولى على إسوريا Isauria وينشئ عاصمة مملكته فى سيس Sis (وهى الآن فى تركيا) ، ويعقد حلفاً مع الصليبيين ، ويدخل الشرائع الأوربية فى بلاده ، ويشجع الصناعة والزراعة ، ويمنح تجار البندقية وجنوى عدداً من الامتيازات ، ويقيم الملاجئ للأيتام ، والمستشفيات للمرضى ، والمدارس لطلاب العلم . واستمتع رعاياه فى أيامه برخاء منقطع النظير ، وكسب بحق اسم ليو الأفخم ، وكان من أعظم ملوك العصور الوسطى حكمة وأكثرهم خيراً وصلاحا . ووجد صهره هثوم الأول HethumI (١٢٢٦ – ١٢٧٠) المسيحيين غير أهل لأن يعتمد عليهم ، فتحالف مع المغول ، وسره أن يطردوا السلاجقة من أرمينية (١٢٤٠) . فلما أن اعتنق المغول الإسلام حاربوا أرمينية الصغرى ودمروها تدميراً (١٣٠٣ ومابعدها) . وفتح المماليك المصريون أرمينية فى عام ١٣٣٥ ، وقسمت البلاد بعد الفتح بين سادة الإقطاع . وظل الأرمن خلال هذا الاضطراب يبدون ضروباً من المهارة الفنية فى العمارة ، وحذقاً عظيما فى النقش الدقيق ، يستمسكون بنوع من الكثلكة المستقلة عن سائر المذاهب ، استطاعوا به أن يصدوا كل المحاولات التى بذلتها القسطنطينية أو رومة للسيطرة على بلادهم .

الفصل الثالث

روسيا والمغول (١٠٥٤ — ١٣١٥)

كانت قبائل نصف همجية تسيطر فى القرن الحادى عشر على بلاد روسيا الجنوبية ، وهذه القبائل هى الكومان Cumans ، والبلغار ، والخزر Khazars ، والپلوڤتسى ، والپتزيناك Patzinaks . . . أما ما بقى من روسيا الأوربية فكان مقسما إلى أربع وستين إمارة — أهمها كيف Kiev ، وڤلهينيا Volhynia ، ونڤجورود ، وسزداليا Suzdalia ، واسمولنسك Smolensk ، وريازان Ryazan ، وشرنيجوف Chernigov ، وپرياسلاڤل Pereyaslavl. وكانت معظم هذه الإمارات تعترف بسيادة كيف عليها ؛ ولما قربت منية يارسلاف Yaroslav أمير كيف الأكبر (١٠٥٤) وزع هذه الولايات بترتيب أهميتها بين أبنائه حسب سنهم ؛ فأعطى أكبرهم إمارة كيف ، ثم وضع نظاما دورياً فذاً يقضى بأنه إذا مات أمير ينتقل الباقون من الأمراء كل منهم إلى الولاية التى تلى ولايته فى الأهمية . وانقسمت طائفة من هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر إلى عدد من الإقطاعيات وزعها الأمراء على أبنائهم ؛ ثم أصبحت هذه الإقطاعيات وراثية على مر الزمن ، فكانت أساساً للنظام الإقطاعى المعدل الذى تعاون فيما بعد هو وغارات المغول على إبقاء بلاد الروسيا بحالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى بعد أن خرجت أوربا الغربية من هذه العصور . على أن بلاد الروسيا كان لها فى هذه الفترة صناعات يدوية نشيطة ، وتجارة أغنى مما أصبح لها فى كثير من القرون المتأخرة .

وكانت سلطة كل أمير وراثية فى العادة ، ولكنها كانت تحددها جمعية شعبية تسمى الڤيشى Veche ومجلس من أعليان البلاد يدعى بويارسكايا دوما

Boyarskaya duma . وتركت معظم الشئون الإدارية والقانونية فى أيدى رجال الدين ، وكادت معرفة القراءة والكتابة تقتصر على هؤلاء هم وعدد قليل من الأعيان ، والتجار ، والمرابين . وقد استعان هؤلاء بالنصوص أو النماذج البيزنطية ، فأنشأوا للروسيا آدابها ، وقوانينها ، ودينها ، وفنونها . وبفضل جهودهم هذبت وحددت الحقوق أو القوانين الروسية Russkaya Pravda التى وضعت أول مرة فى أيام يارسلاف ، وصيغت صياغة قانونية (حول ١١٦٠) . وجعلت للكنيسة الروسية الولاية النامة على شئون الدين ورجاله ، وشئون الزواج والأخلاق والوصايا ، وكان لها سلطان مطلق على الأرقاء وغيرهم من الموظفين الذين يعملون فى أملاكها الواسعة . وارتفعت بفضل جهودها منزلة العبيد فى الروسيا من الوجهة القانونية إلى حد ما ، ولكن تجارة الرقيق ظلت قائمة حتى بلغت ذروتها فى القرن الثانى عشر(٧) .

وشهد هذا القرن نفسه اضمحلال مملكة كيف وسقوطها ، فقد كان للفوضى الإقطاعية السائدة فى غرب أوربا ما يماثلها من الفوضى السائدة بين القبائل والأمراء ؛ وشبت بين عامى ١٠٥٤ ، ١٢٢٤ ثلاث وثمانون حرباً أهلية فى الرسيا ، وأغير عليها ست وأربعون مرة ، وشنت دول روسية ست عشرة حرباً على شعوب غير روسية ، وتنازع ٢٩٣ أميراً عرش أربع وستين إمارة(٨) . وحدثت فى عام ١١١٣ اضطرابات ثورية فى كيف كان سببها ما حل بالأهلين من فقر من جراء الحروب ، وارتفاع سعر الفائدة على الديون ، والاستغلال ، والتعطل . وهاجمت الجماهير الحانقة الثائرة بيوت رجال الأعمال والمرابين ونهبتها ، واحتلت دواوين الحكومة وبسطت سيادتها عليها لحظة من الزمان . واستدعت الجمعية البلدية مونوماخ Monomakh أمير پرياسلافل ليكون أمير كيف الأعظم ؛ وجاء الأمير وهو كاره ، وقام فيها بما قام به صولون فى أثينة عام ٥٩٤ ق . م ، فخفض سعر الفائدة على القروض ، وقيد بيع المدينين المفلسين أرقاء من تلقاء أنفسهم ، كما قيد سلطة أرباب الأعمال

على العمال والموظفين ؛ فاستطاع بفضل هذه الوسائل وأمثالها — التى لم يرض عنها الأغنياء ووصفوها بأنها بمثابة مصادرة لأموالهم ، وعابها الفقراء لأنها فى نظرهم غير كافية — أن ينجى المدينة من الثورة ويعيد تنظيم السلام فى ربوعها(٩) . وبذل جهوداً كبيرة للقضاء على نزاع الأمراء وحروبهم ، وتوحيد بلاد الروسيا من الوجهة السياسية . ولكن هذا العمل كان أكبر من أن يقوم به فى حكمه الذى لم يدم أكثر من اثنى عشر عاما .

وعاد النزاع بين الأمراء وبين الطبقات بعد موته إلى ما كان عليه من قبل . وفى هذه الأثناء كانت سيطرة القبائل الأجنبية سيطرة مستمرة على المجارى الدنيا لأنهار الدنيستر ، والدنيبر ، والدُّن ؛ وكان نمو التجارة الإيطالية فى القسطنطينية ، والبحر الأسود ، وموانى الشام ، قد حوّلا إلى خلجان البحر المتوسط كثيراً من التجارة التى كانت تنتقل قبل ذلك الوقت من بلاد الإسلام وبيزنطية إلى دويلات البحر البلطى مارة بأنهار الروسيا . ونقصت من جراء ذلك ثروة كيف وضعفت وسائلها المادية وروحها المعنوية ، وأخذ جيرانها الهمج منذ عام ١٠٩٦ يغيرون على ما وراءها من الأصقاع وما حولها من الضواحى ، ينهبون الأديرة ويبيعون من يأسرونهم من الفلاحين بيع الرقيق . وأضحت كيف مكاناً غير أمين ، فنقص سكانها ، وأدى هذا إلى نقص الأيدى العاملة فيها . وهاجم جيش أندرى بجوليوبسكى Andrey Bogolyubski كيف فى عام ١١٦٩ ، ونهبها وخربها تخريباً كاملا ، واسترق آلافاً من أهلها حتى كادت « أم المدائن الروسية » يعفو ذكرها من التاريخ مدى ثلاثة قرون . وأتم هذا الخراب الذى حل بكيف استيلاء البنادقة والفرنجة على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، وغارات المغول التى امتدت من عام ١٢٢٩ إلى عام ١٢٤٠ .

وانتقلت زعامة الروسيا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر من « الروس الصغار » أهل أكرنيا إلى « الروس الكبار » الأكثر منهم غلظة وأقدر منهم

على تحمل المشقة ، وهم أهل الإقليم المحيط بمسكو والممتد على ضفتى الفلجا الأعلى . وكانت مسكو قد أنشئت فى عام ١١٥٦ ، ولم تكن فى ذلك الوقت إلا قرية صغيرة تستخدمها سوزداليا Suzdalia (التى كانت تمتد فى الجهة الشمالية الشرقية من مسكو) مركزاً أماميا على حدودها على الطريق الذى يصل مدائن ڤلادمير Vladimir وسزدال Suzdal بكيف . وحارب أندرى بجوليوبسكى (١١٥٧ — ١١٧٤) ليجعل إمارة سوزداليا الجالس هو على عرشها صاحبة السيادة على الروسيا بأجمعها . ولكنه اغتيل وهو يقاتل ليخضع نفجورود لسلطانه كما أخضع كيف من قبل .

وكانت مدينة نفجورود واقعة فى الشمال الغربى من الروسيا على ضفتى نهر ڤلخوف Volkhav قرب مخرج هذا النهر من بحيرة إلمن Ilmen . وإذ كان نهر ڤلخوف يصب فى بحيرة لدوجا Ladoga فى الشمال ، وكانت أنهار أخرى تخرج من بحيرة إلمن متجهة نحو الجنوب والغرب وإلى البحر البلطى عن طريق بحيرة لدوجا ، فإن هذه المدينة لم تكن قريبة من الحدود قرباً يهدد أمنها ، ولا هى بعيدة عنها بعداً يضر بتجارتها ، ولهذا نشأت فيها تجارة داخلية وخارجية نشيطة ، وأضحت هى المركز الشرقى لتجارة مدن العصبة الهانسية . فكانت تتجر عن طريق نهر الدنيبر مع كيف وبيزنطية ، وعن طريق نهر الفلجا مع بلاد الإسلام . وكادت تحتكر تجارة الفراء الروسية لأن سلطانها كان يمتد من پسكوف Pskov فى الغرب إلى المحيط الجامد الشمالى ، ويكاد يصل إلى جبال أورال فى الشرق . وسيطر تجار نفجورود الأقوياء الأشراف بعد عام ١١٩٦ على الجمعية التى كانت تحكم الإمارة عن طريق أميرها المنتخب . فقد كانت هذه المدينة — الدولة جمهورية حرة تطلق على نفسها اسم « سيدى نفجورود الأكبر » . فإذا لم ينل أمير لها رضاء أهلها فإن « سكانها يقدمون له واجب الاحترام ويرشدونه إلى طريق الخروج » من المدينة ؛ فإذا قاومهم زجوه فى السجن ؛ ولما أراد

اسفياتوبولك Sviatopolk أمير كيف الأكبر أن ينصب ابنه أميراً عليهم رغم أنوفهم (١٠١٥) قال له أهل نفجورود : « ابعثه إلى هنا إن كان له رأس ليس هو فى حاجة إليه »(١٠) . ولكن الجمهورية لم تكن دمقراطية ، لأن العمال وصغار التجار لم يكن لهم صوت فى حكومتها ، ولم يكن فى وسعهم أن يؤثروا فى سياستها إلا بالعصيان المتكرر .

وبلغت نفجورود ذروة مجدها فى عهد الأمير ألكسندر نفسكى Alexander Nevsky (١٢٣٨ — ١٢٦٣) فقد أراد البابا جريجورى التاسع أن يخرج الروسيا من المذهب المسيحى اليونانى إلى المذهب اللاتينى ، ودعا إلى حرب صليبية على نفجورود ؛ وظهر جيش سويدى على نهر النيفا ، فهزمه ألكسندر بالقرب من مدينة لينينغراد الحالية (١٢٤٠) واشتق لقبه من اسم هذا النهر . وكان نصره هذا أعظم من أن يبقيه رئيساً لجمهورية ، فنفى بسببه من المدينة ، فلما أن تولى الألمان الحرب الصليبية ، واستولوا على پسكوف وتقدموا حتى أصبحوا على بعد سبعة عشر ميلا من نفجورود ، توسلت الجمعية المرتاعة إلى ألكسندر أن يعود ، فعاد ، واسترد المدينة ، وهزم فرسان ليفونيا Livonie على جليد بحيرة پيپوس Peipus (١٢٤٢) وقضى سنيه الأخيرة ذليلا مهينا ينزعم أهل بلده تحت نير المغول .

ذلك أن المغول دخلوا الروسيا بقوات لا حصر لها . جاءوا من التركستان ، واخترقوا جبال القفقاس ، وأبادوا عندها جيشا من الكرج ، ونهبوا بلاد القرم : واستنجد القومان ، الذين ظلوا عدة قرون يحاربون كيف ، بالروس وقالوا لهم : « لقد امتلكوا اليوم ديارنا ، وسيملكون دياركم غداً »(١١) وعرف بعض الأمراء الروس صدق قولهم وقادوا عدة فرق يريدون أن ينضموا بها للدفاع عن القومان . وبعث المغول رسلا منهم يعرضون على الروس أن يحالفوهم ضد القومان ، فقتل الروس الرسل ودارت معركة على شاطئ نهر كلكا Kalka بالقرب من بحر آزاق Azov ، هزم فيها المغول جيش الروس والقومان ، وأسروا عدداً من قواد الروس

بالخيانة ، وكبلوهم بالأغلال ، وأقاموا فوقهم طواراً جلس عليه كبار رجال المغول ليطعموا وليمة النصر ، بينا كان الأسرى الأشراف يموتون اختناقا (١٢٢٣) .

ثم ارتد المغول إلى منغوليا ، وصرفوا جهودهم فى فتح الصين ، وعاد الأمراء الروس إلى الحرب فيما بينهم ، ولكن المغول عادوا فى عام ١٢٣٧ بقيادة باتو Batu ابن ابن أخى جنكيز خان ؛ وكانت عدتهم ٥٠٠٫٠٠٠ كلهم تقريباً من الفرسان ؛ وكان الطريق الذى جاءوا منه حول الطرف الشمالى من بحر الخزر ، وأعملوا السيف فى رقاب البلغار الضاربين على ضفتى نهر الفجا ، وخربوا مدينة بلغار Bolgar عاصمتهم . وبعث باتو برسالة إلى أمير ريازان يقول فيها : إن كنت تبغى السلم فأعطنا عشر ما عندك » ، فرد عليه بقوله : « إن فى وسعك أن تأخذ كل ما عندنا بعد أن نموت »(١٢) ، واستنجدت ريازان بالإمارات الروسية ، فأبت أن تنجدها ؛ فقاتلت وحدها قتال الأبطال ، وخسرت جميع ما تملكه ، فقد نهب المغول الذين لا يغلبون جميع مدن ريازان ، ودكوا أبنيتها ، واجتاحوا سورذاليا ، وبددوا جيشها ، وحرقوا مسكو ، وحاصروا ڤلدمير ؛ وقص النبلاء شعرهم واختبأوا فى الكنائس ولبسوا مسوح الرهبان ، فلما أحرقت الكنيسة والمدينة كلها قتلوا عن آخرهم ؛ ودمرت النيران سزوال ، ورستوف ، وعدداً كبيراً من قرى الإمارة (١٢٣٨) . وزحف المغول على نفجورود ، فلما وقفت فى سبيلهم الغابات الكثيفة ، والأنهار الغزيرة المياه ، خربوا شرنجوف Chernigov وبريسلاڤن ، وبلغوا فى زحفهم مدينة كيف وبعثوا برسلهم يطلبون إلى المدينة الاستسلام ؛ ولما قتل أهل كيف الرسل ، عبر المغول نهر الدنيبر ، وتغلبوا عليها بالقوة بعد مقاومة ضعيفة ، وخربوا المدينة ، وقتلوا آلافا مؤلفة من أهلها ؛ ولما أن رأى چيوڤنى ده پيانو كرپينى هذه المدينة بعد ست سنين من ذلك الوقت ، وصفها بأنها بلدة تحتوى على مائتى كوخ ، وأن الأرض التى حولها كانت تتناثر فيها الجماجم . ولم تكن الطبقات الوسطى والعليا

تجرؤ فى يوم من الأيام على أن تسلح الفلاحين أو العامة من سكان المدينة ، فلما أن جاء المغول كان الأهلون ضعافاً عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم . فأخذ الفاتحون يقتلونهم أو يسترقونهم كما يحلولهم .

وتقدم المغول إلى وسط أوربا يَغلبون ويُغلَبون ، ثم عادوا أدراجهم مخترقين الروسيا يعيثون فيها فسادا ، وأقاموا على أحد روافد الفلجا مدينة سراى Sarai واتخذوها عاصمة لعشائر مستقلة تعرف باسم الحشد الذهبى . وظل باتو وخلفاؤه يسيطرون على الجزء الأكبر من الروسيا مدة مائتى عام وأربعين عاما من ذلك الوقت ؛ وسمح للأمراء الروس بأن يحتفظوا بأرضهم على شرط أن يؤدوا عنها جزية سنوية لخان الحشد الذهبى ، أو للخان الأعظم لقرقورم المغولية ، وأن يقوموا من حين إلى حين بزيارة لهذا أو ذاك يقدمون لهما فروض الولاء ، ويقطعون فيها مسافات طويلة . وكان الأمراء يجمعون هذا الخراج ويفرضونه على الأهلين بالمساواة القاسية ، يدفع الغنى منه بقدر ما يدفع الفقير ، ومن عجز عن الدفع بيع بيع الرقيق . واستسلم الأمراء وخضعوا لسيادة المغول لأنها حمتهم من الثورات الاجتماعية ، وانضموا إلى المغول فى هجومهم على الشعوب الأخرى ومن بينها الإمارات الروسية نفسها . وتزوج كثيرون من الروس مغوليات ، ولربما دخلت بعض ملامح الوجوه ، والأخلاق المغولية ، فى السلالات الروسية[١٣] . وأخذ بعض الروس عن المغول أساليبهم فى التحدث والملبس . ولما أصبحت الروسيا تابعة لدولة أسيوية انفصلت إلى حد كبير عن الحضارة الأوربية ، وتعاون استبداد الخان مع استبداد أباطرة بيزنطية على إيجاد « حاكم جميع الروس المطلق » فى الدولة المسكوفية المتأخرة .

وعرف زعماء المغول أنهم لايستطيعون إخضاع الروسيا بالقوة وحدها ،

فاصطلحوا مع الكنيسة الروسية ، وحموا لها ممتلكاتها ورجالها ، وأعفوا هذه الممتلكات وأولئك الرجال من الضرائب ، وجعلوا الإعدام عقابا لمن ينتهك حرماتها . وقابلت الكنيسة هذا الجميل بمثله — أو لعلها أرغمت على رده إرغاماً — فأوصت الروس بالخضوع للسادة المغول ، ودعت الله جهرة أن يهبهم السلامة(١٤) . وأراد آلاف من الروس أن يضمنوا لأنفسهم الأمن والسلام وسط عواصف الرعب فترهبوا ؛ وتوالت الهبات على المؤسسات الدينية ، حتى أثرت الكنيسة الروسية ثراء فاحشاً وسط الفقر السائد فى جميع البلاد . ونمت فى الشعوب روح الخضوع والاستسلام ، ومهدت السبيل إلى الاستبداد الذى سلط عليها قروناً طوالا . لكن الروسيا ظلت مع ذلك هى الروسيا وإن حنت رأسها لعاصفة المغول الهوجاء ، ووقفت سداً منيعاً تصد عن أوربا سيل الغزاة الأسيويين ، فقد تحطمت قوة التيار البشرى الجارف على صخرة الأجناس الصقلبية — الروس ، والبوهيميين ، والمورافيين ؛ والپولنديين — والمجرية ؛ وقضت أوربا الغربية فترة من الزمن ترتجف من الهول ولكنها لم تكد يمسها أذى . ولعل بقية أوربا استطاعت أن تسير فى طريقها نحو الحرية السياسة والعقلية ، ونحو الثروة ، والنعيم ، والفن ، لأن الروسيا ظلت مائتى عام مغلوبة ، ذليلة ، راكدة ، فقيرة .

الفصل الرابع

بحر البلقان المضطرب

يرى الناظر إلى بلاد البلقان عن بعد أنها خليط مضطرب من العواصف السياسية والدسائس ، ومن الخداع الجذاب والمهارة التجارية ، والحروب والاغتيال ، والمذابح المدمرة . أما البلغارى ، والرومانى ، والمجرى ، واليوغسلافى فيرى كل منهم أن أمته هى ثمرة ألف عام من الكفاح للظفر باستقلالها من الإمبراطوريات المحيطة بها ، والاحتفاظ بثقافة فذة باهرة ، والتعبير عن خصائصها القومية فى البناء ، واللباس ، والشعر ، والموسيقى والغناء دون أن يعوقها عن ذلك عائق .

وظلت بلغاريا ، التى كانت من قبل دولة قوية فى عهد كروم Krum وسميون Simeon ، ثمانية وستين عاما ومائة عام خاضعة لبيزنطية ، ووجد تذمر البلغار والفلاخ Vlach أهل ولاشيا Wallachia من يعبر عنه فى شخص أخوين هما يوحنا وبطرس آسن Asen كان لهما من الدهاء والشجاعة ما تتطلبه ظروف ذلك الوقت وما تحتاجه البلاد . ودعا الأخوان أهل ترنوڤا Trnova إلى كنيسة القديس دمتريوس وأقنعاهم بأن هذا القديس غادر مدينة سلانيك اليونانية ليتخذ ترنوفا موطنا له ، وأن فى وسع بلغاريا إذا انضوت تحت لوائه أن تستعيد حريتها . وأفلحا فى بلوغ هدفهما ، وقسما الدولة الجديدة تقسيما وديا بينهما ، فاتخذ يوحنا ترنوفا مقراً لحكمة واتخذ بطرس برسلاف Preslav . وكان أعظم ملك من نسلهما ، وفى تاريخ بلغاريا كله ، هو يوحنا آسن الثانى (١٢١٨—١٢٤١) ؛ ذلك أن هذا الملك لم يضم إلى ملكه تراقيا ، ومقدونية ، وإپيروس ، وألبانيا فحسب ، بل حكم هذه البلاد حكماً عادلا أحبه من أجله رعاياه من اليونان أنفسهم . وكسب

رضاء البابوات بإظهار الولاء لهم ، وبإغداق الأموال على الأديرة ؛ وشجع التجارة ، والآداب والفنون بمناصرتها وبما سنه لها من القوانين المستنيرة ، وجعل ترنوفا من أكثر مدائن أوربا جمالا ، ورفع منزلة بلغاريا فى الثقافة والحضارة إلى مصاف معظم الأمم الراقية فى تلك الأيام . لكن خلفاءه على العرش لم يرثوا منه حكمته ؛ وأشاعت غزوات المغول الاضطراب فى الدولة وأضعفتها (١٢٩٢ — ١٢٩٥) ، وأدى ذلك إلى خضوعها فى القرن الرابع عشر إلى الصرب أولا ثم إلى الأتراك فيما بعد .

وأفلح الزهوبان Zhupan (الزعيم) استيفن نمانيا Stephen Nemanga فى عام ١١٥٩ فى إخضاع العشائر والأقاليم الصربية المختلفة لحكمه ، فكان هو المؤسس الحقيقى لمملكة الصرب ، التى ظلت خاضعة لحكم أسرته مائتى عام . وكان ابنه سافا Sava يؤدى للأمة أعمال كبير الأساقفة والحاكم السياسى فى وقت واحد ، فأصبح فيما بعد أعظم قديسيها منزلة فى نفوس الأهلين . وكانت البلاد لا تزال فقيرة ، حتى كانت القصور الملكية نفسها تقام من الخشب . وكانت لها فرضة بحرية مزدهرة هى مدينة راجوسا Ragusa (دبرفنيك Dubrovnik الحالية) ، ولكن هذه المدينة كانت دولة مستقلة مفردة ، أصبحت فى عام ١٢٢١ خاضعة لحماية البندقية . واتخذ الفن الصربى فى خلال هذين القرنين طرازاً خاصا به وبلغ درجة عظيمة من الإتقان فى هذا الطراز الخاص ، نتبينهما فى الصور والنقوش المرسومة على جدران كنيسة القديس پنتيليمون Panteleimon ذات الدير فى نريز Nerez (حوالى عام ١١٦٤) ، فهى تكشف عن واقعية مسرحية لم نعتدها فى التصوير البيزنطى ، وتسبق بقرن من الزمان بعض أساليب التصوير التى كانت فى ظن الناس من ابتكار دشيو Duccio وچيتو Giotto . وتظهر فى هذه الصور الجدارية وغيرها مما رسم فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر صور للملوك تنم عن فردية لا تضارعها فيها أية صورة بيزنطية قبل ذلك العهد(١٥)

وبينما كانت بلاد الصرب فى العصور الوسطى تسير نحو حضارة راقية ، حطمت الاضطهادات والمروق من الدين وحدة الأمة ، ولربما كان فى وسعها لولا هذا أن تقف زحف الأتراك . كذلك أضعفت المنازعات الدينية البوسنه Bosnia بعد أن بلغت ذروة مجدها فى العصور الوسطى تحت حكم البان Ban (أى الملك) كولين Kulin (١١٨٠ – ١٢٠٤) ، وما زالت كذلك حتى خضعت إلى المجر عام ١٢٥٤ .

وعم الاضطراب هنغاريا بعد موت استيفن الأول (١٠٣٨) من جراء الفتن التى أثارها المجر الوثنيون على الملوك الكاثوليك ، وما بذله هنرى الثالث من محاولات لضم هنغاريا إلى ألمانيا . وهزم اندرو الأول Andrew I هـ ى ، ولما جدد الإمبراطور هنرى الرابع هذه المحاولة فوّت الملك جيزا الأول Giza I عليه غرضه بأن أعطى هنغاريا إلى جريجورى السابع ، ثم استردها منه إقطاعية بابوية (١٠٧٦) . وأدى التنافس على العرش فى القرن الثانى عشر إلى تقوية الإقطاع فى البلاد ، فقد منح المتنافسون النبلاء إقطاعات واسعة نظير تأييدهم لهم ، حتى بلغ هؤلاء النبلاء من القوة فى عام ١٢٢٢ ما مكنهم من انتزاع « مرسوم ذهبى Golden Bull » شبيه شبهاً عجيباً بالعهد الأعظم (مجنا كارتا) الذى وقعه چون ملك إنجلترا فى عام ١٢١٥ . وقد أنكر هذا المرسوم وراثة الإقطاعيات ، ولكنه وعد أن يدعى مجلس كل عام ، وألا يسجن أى نبيل إلا بعد أن يحاكم أمام كونت من القصر الإمبراطورى ، وألا تفرض ضريبة ما على ضياع الأشراف أو رجال الدين . وظل هذا المرسوم الملكى المعروف باسم المرسوم الذهبى نسبة إلى غلافه أو خاتمه صك الحرية لأشراف هنغاريا ، وأضعف سلطة الملكية الهنغارية وقت أن كان المغول يستعدون لإيقاع أوربا فى أزمة من أشد الأزمات فى تاريخها كله .

وفى وسعنا أن ندرك ما بلغه المغول من سعة الملك وقوة السلطان إذا ذكرنا أن أجادى Ogadi الخان الأعظم سير فى عام ١٢٣٥ ثلاثة جيوش للزحف على كوريا والصين وأوربا . وعبر الجيش الثالث بقيادة باتو نهر الفلجا فى عام ١٢٣٧ ، وكانت عدته ثلثمائة ألف مقاتل . ولم يكن هذا الجيش حشداً غير نظامى ، بل كان قوة جيدة التدريب ، حسنة القيادة مجهزة بآلات قوية للحصار وبأسلحة نارية جديدة عرف المغول طريقة استعمالها من الصينيين . وخرب هؤلاء المحاربون فى مدى ثلاث سنين الروسيا الجنوبية كلها تقريباً . وكأنما كان باتو غير قادر على أن يفكر فى الهزيمة فقسم هذا الجيش قسمين ، زحف أحدهما على بولندة ، واستولى على كركوفيا Cracow ولبلين Lubiin وعبر نهر الأودر وهزم الألمان فى ليجنتز Leignitz (١٢٤١) ؛ وتسلق الجيش الثانى بقيادة باتو نفسه جبال الكربات ، وهاجم هنغاريا ، والتقى بقوات هنغاريا والنمسا المتحدة عند موهى Mohi وأوقع بها هزيمة منكرة قدّر مؤرخو العصور الوسطى — الذين لا يراعون قط جانب الاعتدال فيما يذكرون من الأرقام — عدد القتلى من المسيحيين بمائة ألف ، وقدّر الإمبراطور فردريك الثانى خسائر الهنغاريين بما « لايكاد يقل عن جميع القوة الحربية للمملكة »(١٦) . ومن مخربات التاريخ أن الغالبين والمغلوبين فى هذه البلاد كانوا من دم واحد : فقد كان القتلى من أشراف هنغاريا أبناء المجر المغول الذين اجتاحوا البلاد قبل ثلاثة قرون من ذلك الوقت . واستولى باتو على بست Pesth وإزترجوم Eztergom (١٢٤١) ؛ وعبرت قوة من المغول نهر الدانوب ، وأخذت تطارد الملك الهنغارى بيلا الرابع Bela IV حتى وصلت إلى شاطئ البحر الأدرياوى ، وكانت أينما حلت تنزل الخراب والدمار . وأخذ فردريك الثانى يهيب بأوربا

أن تتحد لتستطيع الوقوف فى وجه تيار الغزو الأسيوى الجارف ، ولكن نداءه كان صرخة فى واد . وحاول أنوسنت الثالث أن يدعو المغول إلى المسيحية وإلى السلام ، ولكن دعوته هو الآخر ذهبت أدراج الرياح ؛ وكان الذى أنجى المسيحية وأوربا هو موت أجادى وعودة باتو إلى قرقورم للاشتراك فى انتخاب خان جديد . ولم يحدث فى التاريخ كله تخريب أشمل من هذا التخريب أو أوسع فقد امتد من المحيط الهادى إلى البحرين الأدرياوى والبلطى .

وعاد بيلا الرابع إلى پست المخربة وعمرها بالألمان ، ونقل عاصمة ملكه إلى بودا Buda على الضفة الأخرى من الدانوب (١٢٤٧) ؛ وأعاد على مهل اقتصاديات بلاده المحطمة . وقامت طبقة جديدة من الأشراف فأعادت تنظيم المراعى والضياع الكبرى التى كان الرعاة الفلاحون الأذلاء ينتجون منها الطعام للأمة . وهبط عمال المناجم الألمان من أرزچبرج واستخرجوا المعادن الخام الغنية من ترنسلفانيا Transylvania . وكانت حياة الأهلين وعاداتهم لا تزال خشنة غليظة ، وأدوات العمل بدائية ، والبيوت أكواخاً من الأغصان والطين . وقام الرجال فى هذه البيئة التى تضطرب فيها الأجناس واللغات ، وينقسم فيها الأهلون إلى طبقات ومذاهب دينية متنابذة متعادية ، قام الرجال فى هذه البيئة يعملون لتحصيل أرزاقهم ومكاسبهم ، ووصل أسباب الاقتصاد الذى هو منبت الحضارة .

الفصل الخامس

دول التخوم

كما أن كل نقطة فى الكون اللانهائى يمكن أن تعد مركزاً له ، كذلك نرى كل أمة وكل نفس فى موكب الحضارات والدول تفسر مسرحية التاريخ والحياة تفسيراً يدور حول صفاتها هى والدور الذى قامت به فيه . وكان فى شمال جبال البلقان خليط آخر من الشعوب — من البوهيميين ، والپولنديين ؛ واللتوانيين ، والليفونيين ، والفنلنديين ، كل واحد منها يجعل تاريخه القومى المحور الذى يدور حوله العالم كله مستمسكاً فى ذلك بالعزة القومية التى تبعث الحياة فى نفوس الشعوب .

وكان الفنلنديون الذين تربطهم بالمجر والصرب صلات دم بعيدة ، يعيشون فى بداية العصور الوسطى على ضفتى نهر الفلجا الأعلى والأوكا Oka . وقبل أن يستهل القرن الثامن هاجر أولئك الأقوام إلى الأراضى الجدباء المسرحية المناظر المعروفة عند غيرهم باسم فنلندة وعندهم هم باسم السوئمى Suomi أو أرض المناقع ، ولما أخذوا يغيرون على سواحل اسكنديناوة اضطر إرك التاسع Eric IX ملك السويد إلى فتح بلادهم فى عام ١١٥٧ . وترك إرك أسقفاً عندهم فى أبسالا لينشر بينهم الحضارة ، فقتل الفنلنديون الأسقف هنرى ثم اتخذوه بعد قتله قديسهم الشفيع ، وأخذوا فى بسالة هادئة يزيلون الغابات ويجففون المناقع ، ويصرفون مياه العشرة « الآلاف بحيرة »(١٧) ويجمعون الفراء ، ويجاهدون ضد الثلوج .

وأخذت قبائل أخرى قريبة فى أصولها من الفنلنديين تعمل بالفاس والمجرف جنوب خليج فنلندة ، وهى قبائل البروسيين Borussians أو Prussians ، والإسث Esths (الإستونيين) ، واللف ، Livs (اللفونيين) ، واللتفا Litva

(اللثوانيين) واللت Letts واللتفيين . فكانوا يصيدون الحيوان من الغابات ، والسمك من مياه البحار والأنهار ، ويربون النحل ، ويفلحون الأرض ، ويتركون وراءهم تراثا من الآداب والفنون لمن هم أقل منهم قوة من خلفائهم الذين كانوا هم يكدحون من أجلهم . وظلت هذه القبائل كلها ما عدا الأستونيين وثنية حتى القرن الثانى عشر حين نشر الألمان بينهم المسيحية والحضارة بالنار والسيف . ولما وجد اللفونيون أن الألمان يتخذون الدين المسيحى وسيلة للتسلل إلى بلادهم والسيطرة عليهم قتلوا المبشرين ، ونزلوا إلى نهر الدفينا Dvina ليتطهروا فيه من دنس التعمد ، وعادوا إلى آلهتهم القدامى . ودعا إنوسنت الثالث إلى شن حرب صليبية عليهم ، ودخل الأسقف ألبرت Albert نهر الدفينا بثلاث وعشرين سفينة حربية ، وشاد مدينة ريجا Riga واتخذها عاصمة للبلاد وأخضع لفونيا لحكم الألمان ١٢٠١ . وأتمت طائفتان من الفرسان الدينيين — العسكريين طائفتا الفرسان اللفونيين ، والفرسان التيوتون إخضاع دول البحر البلطى لألمانيا ، وامتلكوا فيها أرضين واسعة ، ونشروا الدين المسيحى بين أهلها ، واتخذوهم رقيق أرض(١٨) . وقويت قلوب الفرسان التيوتون بهذا النجاح ، فتقدموا نحو الروسيا يرجون أن يخضعوا فى القليل ولاياتها الغربية لألمانيا وللمسيحية اللاتينية ، ولكنهم هزموا عند بحيرة پيپوس (١٢٤٢) فى واقعة من مواقع التاريخ الحاسمة التى لا يحصى لها عدد .

وكان بحر آخر من الصقالبة يموج حول هذه الدول البلطية . وكان منهم طائفة تسمى نفسها البولانيين أى « شعب الحقول » — وكانت تفلح أودية أنهار الوارث Warthe والأودر Oder ، وطائفة أخرى تسمى المازور Mazurs ، تسكن على ضفتى نهر الفستيولا Vistula ، وطائفة ثالثة تدعى البومرزانى Pomerzani (أى « بجانب البحر ») هى التى اشتق منها اسم بمرانيا Pomerania . وأراد الأمير البولندى ميسزكو الأول Mieszko 1 أن يجنب بلاده فتح الألمان ، فوضع پولندة تحت حماية البابا پوات ، وأدارت پولندة من

ذلك الحين ظهرها نحو صقالبة الشرق نصف البيزنطيين ، وألقت بنفسها فى أحضان أوربا الغربية والمسيحية الرومانية . وفتح بلسلاف الأول Boleslav I (٩٩٢ — ١٠٢٥) ابن ميسزكو پومرانيا ، وضم إلى بلاده برسلو Breslau وكركوفيا Cracow ونصب نفسه أول ملك على پولندة . وقسم باسلاف الثالث Boleslav III (١١٠٢ — ١١٣٩) المملكة بين أبنائه الأربعة ، وضعفت الملكية بعد هذا التقسيم ، وقسم الأشراف الأرض إمارات إقطاعية ، وأخذت پولندة تتقلب بين الحرية تارة والخضوع لألمانيا وبوهيميا تارة أخرى . واندفع عليها تيار المغول الجارف فى عام ١٢٤١ ، واستولوا على كركوفيا عاصمة البلاد ، ودكوها دكا . ولما انحسر تيار الأسيويين طغت فى أثره موجة من المهاجرين الألمان على پولندة الغربية ، وخلقت فيها مزيجا قوياً من لغة الألمان وشرائعهم ، ودمائهم ، ورحب بلسلاف الخامس فى هذا الوقت عينه (١٢٤٦) باليهود الفارين من المذابح فى ألمانيا ، وشجعهم على تنمية الأعمال التجارية والمالية ، واختير ونسسلاس الثانى Wenceslas II ملك بوهيميا ملكا على پولندة فى عام ١٣١٠ ، وضم الأمتين تحت تاج واحد .

واستقر الصقالبة فى بوهيميا ومورافيا فى القرنين الخامس والسادس ؛ وقام زعيم صقلبي يدعى سامو فى عام ٦٢٣ وحرر بوهيميا من حكم الآفار وأسس فيها دولة ملكية مطلقة ماتت بموته فى عام ٦٥٨ . وغزا شارلمان أرضها فى عام ٨٠٥ ، وظلت بوهيميا ومورافيا جزأين من الدولة الكارولنجية زمنا لا نعرف مداه . حتى إذا كان عام ٨٩٤ أخضعت أسرة بريمزل Premysl كلا الإقليمين لسلطانها الدائم ، ولكن المجر حكموا مورافيا نصف قرن من الزمان (٩٠٧ — ٩٥٧) . وفى عام ٩٢٨ أخضع هنرى الأول بوهيميا للألمان . وعم الرخاء بوهيميا فى عهد الدوق ونسسلاس الأول Wenceslas I (٩٢٨—٩٣٥) على الرغم من خضوعها للألمان هذا الخضوع المتقطع ؛ وكانت أم هذا الدوق القديسة لدملا St. Ludmilla

قد ربته تربية مسيحية خالصة ، وظل بعد أن تولى الحكم مسيحياً مخلصاً يطعم الفقراء ويكسوهم ، ويحمى الأرامل والأيتام ، ويستضيف الغرباء ، ويحرر الأرقاء من ماله . وحاول أخوه أن يغتاله لأنه تعوزه الرذائل التى لابد من وجودها فى الملوك ، فضربه ونسسلاس بيده وعفا عنه ، ولكن غيره من المتآمرين اغتالوا الملك وهو فى طريقه لحضور القداس فى اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر عام ٩٣٥ ؛ ولا يزال أهل بوهيميا يحتفلون بهذا اليوم ويسمونه عيد ونسسلال قديس بوهيميا وحارسها .

وخلفه أدواق ذوو نزعة حربية ، وزحف بلسلاف الأول Boleslav I (٩٣٩ — ٩٦٧) والثانى (٩٦٧ — ٩٩٩) ، وبراتسلاف الأول Bratislav I (١٠٣٧ — ١٠٥٥) من عاصمتهم ذات الموقع الحربى المنيع وفتحوا موراڤيا ، وسيليزيا ، وپولندة ؛ ولكن هنرى الثالث أرغم براتسلاف على الجلاء عن پولندة والعودة إلى أداء الجزية لألمانيا . ثم حرر أتوكار الأول Attokar I ١١٩٨ — ١٢٣٠ بوهيميا وصار أول ملوكها ، وأخضع أتوكار الثانى النمسا ، واستيريا Styria وكارنثيا ؛ وكان أتوكار هذا شديد الرغبة فى تنمية الصناعة وإيجاد طبقة وسطى فى البلاد يقاوم بها النبلاء المتمردين ، فشجع الألمان على أن يهاجروا إلى بلاده حتى أصبح العنصر الألمانى هو الكثرة الغالبية من سكان مدن بوهيميا ومورافيا كلها تقريباً(١٩) ، وأصبحت مناجم الفضة فى كتناهورا Kutna Hora أساس رخاء بوهيميا ومطمع غزاتها الكثيرين ، وأعلن الألمان الحرب على أتوكار فى عام ١٢٧٤ ، وأبى أشراف بلاده أن يساعدوه على الغزاة ، فتخلى لهم عن فتوحه ، واحتفظ بعرشه بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألمانيا . ولما أن تدخل الإمبراطور رودلف هپسبرج Rudolf of Hapsburg فى شئون بوهيميا الداخلية عبأ أتوكار جيشاً جديداً

حارب به الألمان عند درنكروت Durnkrut ؛ وتخلى عنه النبلاء للمرة الثانية ، فألقى بنفسه فى وطيس المعمعة بين صفوف الأعداء المتراصة ، ومات وهو يقاتل قتال المستيئس .

وصالح ونسسلاس الثانى (١٢٨٧ - ١٣٠٥) الألمان على أن يعود أميراً إقطاعياً خاضعاً لهم ، وبذل جهوداً جبارة فى إعادة النظام والرخاء إلى البلاد . وانتهى بموته عهد الأسرة البريمسلية بعد أن حكمت البلاد خمسمائة عام

كان البوهيميون ، والمورافيون ، والپولنديون هم كل من بقى من المهاجرين لصقالبة الذين كانوا يملأون من قبل ألمانيا الشرقية إلى حدود نهر الإلب ، كانوا فى الوقت الذى نتحدث عنه خاضعين لسلطان الألمان .

الفصل السادس

ألمـــانيـــا

كان الذين كسبوا المعركة فى النزاع التاريخى القائم حول تولى غير رجال الدين المناصب الكهنوتية هم أشراف ألمانيا — الأدواق واللوردة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة . وقد سيطر هؤلاء على الملكية الضعيفة بعد هزيمة هنرى الرابع ؛ وأقاموا فى البلاد نظاماً إقطاعياً يعمل على تفكيكها وإضعاف سلطان حكومتها المركزية ، وأدى هذا النظام إلى حرمان ألمانيا فى القرن الثالث عشر من زعامة أوربا .

وخلع هنرى الخامس (١١٠٦ — ١١٢٦) أباه عن العرش ، وواصل كفاح أبيه ضد البارونات والبابوات . ولما رفض پسكال الثانى Paschael II أن يتوجه إمبراطوراً إلا إذا نزل عن حقه فى تولية غير رجال الدين المناصب الكهنوتية ، زج بالبابا والكرادلة فى السجن . ولما مات ألغى الأشراف نظام الملكية الوراثية ، وقضوا على الأسرة الفرنكونية Franconian ، وولوا لوثير الثالث Lothair III السكسونى ملكا على البلاد ، وبعد ثلاثة عشر عاما من ذلك الوقت أسس كنراد الثالث Conrad III أسرة هوهنستاوفن Hohenstaufen السوابية أقوى أسرة ملكية فى تاريخ ألمانيا كله .

ولم يوافق الدوق هنرى الباڤارى على من وقع عليه اختيار الناخبين ، وأيده فى هذا الرفض عمه ولف Welf أو جلف Guelf ؛ وشب النزاع من هذا الوقت بين جلف وغبلين "Ghibelline" وهو النزاع الذى اتخذ فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر صوراً كثيرة ، وكانت له نتائج متعددة(*) .

وحاصر جيش آل هوهنستاوفن العصاة البافاريين فى بلده ويزبرج Weisberg وقلعتها . وتقول إحدى الروايات القديمة إن المدينتين المتنازعتين « هى ولف ! » و « هى ويبلنج ! » سجلتا اسم الطائفتين المقتتلتين ، وتقول القصص الظريفة إنه لما قبل السوابيون المنتصرون استسلام المدينة على أن يؤمن النساء وحدهن من القتل ، وأن يسمح لهن بمغادرتها ومعهن كل ما يستطعن حمله ، خرجت النساء القويات الأجسام يمشين وهن يحملن أزواجهن على ظهورهن[٢٠] . وعقدت هدنة فى عام ١١٤٢ حين خرج كنراد للحرب الصليبية ، ولكن كنراد أخفق فى غرضه وعاد يجلله العار . وخيل إلى الناس أن بيت هوهنستاوفن قد تلطخ اسمه بالعار حين جلس على العرش أعظم رجل من رجاله .

وكان فريدريخ Friedrich (سيد السلام) أو فردريك الأول (١١٥٢ — ١١٩٠) فى سن الثلاثين حين اختير ملكا . ولم يكن رجلا مهيب الطلعة — فقد كان قصير القامة ، أبيض البشرة ، أصفر الشعر ، ذا لحية حمراء أكسبته فى إيطاليا اسم بربرسا Barbarossa ، ولكنه كان ذا عقل صاف وعزيمة ماضية ؛ قضى حياته فى العمل لخير الدولة ، وأعاد ألمانيا إلى زعامة العالم المسيحى وإن كان قد منى بكثير من الهزائم . وإذ كان يجرى فى عروقه دم آل هوهنستاوفن وآل ولف جميعاً ، فقد نادى بسلم فى البلاد Landfried ، وصالح أعداءه ، وهدأ أصدقاءه ، وقضى بشدة على المنازعات ، والاضطرابات ، والجرائم . ويصفه معاصروه بدماثة الخلق ، وباستعداده الدائم للابتسام ابتسامة رقيقة جذابة ، وإن كان « شديد الوطأة على الأشرار » حتى كانت قسوة قوانينه الجنائية ، وهمجيتها عاملا فى تقدم الحضارة فى ألمانيا . وكان الناس يثنون بحق على حياته

(*) كانت غبلين أو ڤبلنجن Waiblingen قرية من أملاك أسرة هوهنستاوفن . ومعنى هذا اللفظ هو « استاوفن العالية » وهو مشتق من اسم حصن جبلى وقرية فى سوابيا .

الخاصة لما عرف عنه من تمسكه بأهداب العفة والفضيلة ، وإن كان قد طلق زوجته الأولى لقربها إليه من ناحية العصب ، وتزوج بوريثة كونت برغندية فنال بهذا الزواج مع عروسة مملكة .

وإذ كان يتوق لأن يتوّجه البابا إمبراطوراً ، فقد وعد يوجنيوس الثالث Eugenius 111 أن يساعده على الرومان المتمردين ، والنورمان المشاكسين ، إذا حقق البابا رغبته ، وقدم الملك الشاب الفخور إلى نيبي Nepi القريبة من رومة حيث التقى بهدريان الرابع البابا الجديد ، وأغفل الشعيرة المعتادة القاضية بأن يمسك الحاكم الزمنى زمام جواد البابا وركابه ويساعده على النزول . وبذلك نزل هدريان إلى الأرض من غير معونة ، وأبى على فردريك « قبلة السلام » وتاج الإمبراطورية إلا إذا أدى فردريك هذه الشعيرة . وظل أعوان البابا والملك يومين كاملين يتناقشون فى هذه المسألة ويجعلون تاج الإمبراطورية معلقاً على أداء المراسم الشكلية ، حتى خضع فردريك آخر الأمر ، فانسحب البابا وعاد إلى المدينة ممتطياً صهوة جواده ، وأمسك فردريك بزمام فرس البابا وركابه ، وظل من ذلك الحين يتحدث عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، يرجو من وراء هذا أن يعترف العالم بأن الإمبراطور هو والبابا النائبان عن الله فى الأرض .

وجعله لقبه الإمبراطورى ملكا على لمبارديا أيضاً ؛ ولم يكن حاكم ألمانى بعد هنرى الرابع يستمسك بحرفية هذا اللقب ، ولكن فردريك سرعان ما بعث إلى كل بلد من بلدان إيطاليا الشمالية حاكما يصرف أمورها باسمه . وقبلت بعض المدن أولئك السادة الأجانب ولم يقبلهم بعضها . وإذ كان فردريك يحب النظام أكثر من الحرية ، ولعله أيضاً كان يرغب فى السيطرة على المنافذ الإيطالية لتجارة ألمانيا مع بلاد الشرق ، فقد خرج فى عام ١١٥٨ ليخضع البلاد الثائرة التى تعشق الحرية أكثر من النظام . واستدعى إلى بلاطه فى رنكاجليا Roncaglia فقهاء القانون الذين كانوا يحيون الشريعة الرومانية فى بولونيا ؛ وسره أن يعرف

منهم أن هذه الشريعة تجعل الإمبراطور صاحب السلطة المطلقة على جميع أجزاء الإمبراطورية والمالك لكل ما فيها ، وتخوله حق تعديل الحقوق الشخصية أو إلغائها إذا رأى فى تعديلها أو إلغائها مصلحة للدولة . ورفض البابا اسكندر الثالث هذه الادعاءات لخوفه منها على حقوق البابوية الزمنية ، وأيد هذا الرفض بإعلانه أن هذه الحقوق هبات من پيپين وشارلمان ؛ ولما أصر فردريك على الاستمساك بمطالبه حرمه البابا من الكنيسة (١١٦٠) ، وانتقلت وقتئذ صيحات مدينتى جلف وغبلين لتمثل أولاهما مؤيدى البابا والثانية مؤيدى الإمبراطور . وحاصر فردريك مدينة ميلان العنيدة عامين كاملين ، حتى إذا استولى عليها آخر الأمر حرقها عن آخرها (١١٦٢) . وأغضبت هذه القسوة مدائن ڤيرونا ، وڤيسنزا ، وپدوا ، وترڤيزو ، وفرارا ، ومانتوا ، وبرشيا ، وبرجامو ، وكرمونا ، وپياسنزا ، وپارما ، ومودينا ، وبولونيا ، وميلان ، فعقدت فيما بينهما حلف جامعة المدن اللمباردية (١١٦٧) وهزمت جيوش تلك الجامعة جيش فردريك الألمانى عند لنيانو فى عام ١١٧٦ ، وأرغمته على أن يعقد هدنة تدوم ست سنين . واصطلح الإمبراطور والبابا بعد عام من ذلك الوقت ، ووقع فردريك معاهدة صلح فى كنستانس (١١٨٣) أعاد بها الحكم الذاتى إلى المدن الإيطالية . وأقرت هذه المدن فى نظير هذا بالسيادة الاسمية للإمبراطورية عليها ، ووافقت كرما منها وشهامة على أن تمد فردريك وحاشيته بما يلزمه من الزاد فى زياراته للمبارديا .

وهكذا هزم فردريك فى إيطاليا ولكنه انتصر فى جميع البلاد الأخرى ، وأفلح فى تثبيت دعائم السلطة الإمبراطورية على بولندة ، وبوهيميا ، وهنغاريا . وفرض من جديد على رجال الدين الألمان ، بالفعل إن لم يكن بالقول ، جميع حقوق تولى المناصب التى كان يطالب بها هنرى الرابع ، وكسب معونة هؤلاء الرجال حتى على البابوات أنفسهم[٢١] . ونعمت ألمانيا بما ناله من مجد ، وسرها أن تستدعيه من إيطاليا ، واغتبطت بمواكب الفرسان التى كانت تسير فى حفلات

تتويجه ، وزيجاته ، وأعياده . وخرج الإمبراطور الشيخ فى عام ١١٨٩ على رأس مائة ألف من الرجال إلى الحرب الصليبية الثالثة ، ولعله كان يرغب فى أن يؤلف من الشرق والغرب إمبراطورية رومانية تعود إلى رقعتها القديمة ، ومات الإمبراطور غريقاً فى قليقية بعد عام من ذلك الوقت .

وكان فردريك كما كان شارلمان مشبعاً إلى أقصى حد بالتقاليد الرومانية ، وقد أنهك قواه بما بذله من الجهد لإحياء ماضيها الميت . وحزن أنصار الملكية المطلقة المعجبون بها لما منى به من الهزائم، وعدوها انتصاراً للفوضى ، أما عشاق الدمقراطية فيسرون بها ويرونها مراحل فى طريق الحرية ، وإذا ما نظرنا إلى أعماله بعينه هو رأيناه على حق فيما فعل ؛ فقد كانت ألمانيا وإيطاليا تسيران مسرعتين فى طريق الفساد واختلال النظام ، ولم تكن سلطة غير سلطة الإمبراطورية القوية تستطيع القضاء على المنازعات والاضطرابات الإقطاعية والحروب القائمة بين المدن المختلفة ، وكان لابد أن يستتب النظام ليمهد السبيل إلى نشأة الحرية القومية . ونسجت حول فردريك الأول فى عهود الضعف الألمانية المقبلة أقاصيص دالة على حب الشعب له ، وخلع على بربرسا بعد حين من الصفات ما كان القرن الثالث عشر يتصور وجوده فى حفيده : فقيل إنه لم يمت بحق بل كل ما فى الأمر أنه كان نائماً فى جبال كيفهوزر Kyffhauser بثورنجيا Thuringia ، وكان فى مقدور الناس أن يروا لحيته الطويلة تنمو مخترقة ما يغطيه من الرخام ؛ وسوف يستيقظ من نومه فى يوم من الأيام ، وينفض الثرى عن كتفيه ، ويعيد إلى ألمانيا النظام والقوة . ولما أنشأ بسمارك دولة ألمانيا الموحدة قال هذا الشعب الفخور إنه هو بربرسا نهض ظافراً من قبره[٢٢] .

وكاد هنرى السادس (١١٩٠ – ١١٩٧) يحقق حلم أبيه ، فقد انتزع فى عام ١١٩٤ جنوبى إيطاليا وصقلية من النورمان بمعونة جنوى وبيزا ، وخضعت له إيطاليا كلها عدا الولايات البابوية . وضمت پروڤانس، ودوفينيه Cauphiné ،

وبرغندية ؛ وألساس ، ولورين ، وسويسرا ، وهولندة ، وألمانيا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وبولندة ضمت هذه كلها إلى أملاك هنرى ، واعترفت إنجلترا بسيادته عليها ، وأدى له المسلمون الموحدون الجزية ، وطلبت أنطاكية ، وقليقية ، وقبرص أن تضم إلى الإمبراطورية ، وكان هنرى ينظر بنهم إلى فرنسا وأسپانيا ، وقد وضع الخطط للاستيلاء على بيزنطية ، وكانت الفرق الأولى من جيشه قد أبحرت إلى بلاد الشرق حين أصيب بزخار البطن وقضى نحبه فى صقلية وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

ولم يكن هنرى قد حسب حساب مناخ هذه البلاد التى فتحها وأعد العدة لاتقاء ثأرها منه . ولم يكن له إلا ولد واحد هو طفل فى الثالثة من عمره ، وأعقبت موته فترة من الفوضى دامت نحو عشر سنين أخذ المطالبون بالعرش فيها يقتتلون فيما بينهم . ولما أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد تجددت الحرب بين الإمبراطورية والبابوية ، تجددت فى إيطاليا على يد ملك ألمانى — نورمانى أصبح إيطاليا ، سنتحدث عنه فيما بعد حين نتكلم على إيطاليا . وأعقبت موت فردريك الثانى (١٢٥٠) نحو ثلاثين عاماً أخرى من الفوضى يسميها شلر : « العهد المرعب الذى لا سادة فيه » ، باع فيه الأمراء الناخبون عرش ألمانيا لكل مستضعف يتركهم أحراراً فى أن يوطدوا أركان سلطانهم المستقل . وتكشف عهد الفوضى عن نهاية أسرة هوهنستاوفن ، وأنشأ رودلف الهپسبرجى فى عام ١٢٧٣ أسرة جديدة واتخذ ڤينا عاصمة له . وأراد رودلف أن يكسب تاج الإمبراطورية ، فوقع فى عام ١٢٧٩ إعلانا يعترف فيه بخضوع السلطة الملكية للسلطة البابوية خضوعاً تاماً ؛ ويتخلى فيه عن جميع مطالبه فى إيطاليا الجنوبية وصقلية . ولم يصبح رودلف إمبراطوراً قط ، ولكنه استطاع بشجاعته ، وإخلاصه ، ونشاطه أن يعيد النظام والرخاء إلى ألمانيا ، وأن ينشىء أسرة قوية ظلت تحكم النمسا وهنغاريا حتى عام ١٩١٨ .

وبذل هنرى السابع (١٣٠٨–١٣١٣) آخر الجهود لتوحيد ألمانيا وإيطاليا

فعبر جبال الألب (١٣١٠) بمعونة ضئيلة من الأشراف الألمان وقوة صغيرة من فرسان الوالون Walloon ، ورحبت به كثير من مدن لمبارديا ، وكانت قد سئمت حرب الطبقات ونزاع المدن بعضها مع بعض ، وتاقت نفسها إلى التحرر من سلطان الكنيسة عليها . ورحب دانتى بالغزاة برسالة عن الملكية ، أعلن فيها بشجاعة تحرر السلطة الزمنية من السلطة الروحية ، وطلب فيها إلى هنرى أن ينقذ إيطاليا من سيطرة البابوية ، ولكن الجلف من أهل فلورنس أصبحت لهم الغلبة فى البلاد ، وسحبت المدن المشاكسة تأييدها ، ومات هنرى ، وهو محوط بالأعداء ، بحمى الملاريا وهى الداء الذى تجزى به إيطاليا بين الفينة والفينة عاشقيها المملقين.

وصدت ألمانيا فى الجنوب حواجز من طبيعة الأرض ، واختلاف العنصر ، واللغة ، فوجدت لها مخرجا وتعويضاً فى جهة الشرق ، فاستردت الهجرات والفتوح والاستعمار الألمانى والهولندى ثلاثة أخماس ألمانيا من الصقالبة ؛ وانتشر الألمان الكثيرو النسل على ضفتى الدانوب ووصلوا إلى هنغاريا ورومانيا ؛ وأقام التجار الألمان أسواقا وثغوراً فى فرانكفورت على الأودر ، وفى برسلاو ، وبراج ، ودانتزج وريجا ودوربات Dorpt وريفال Reval ، ومراكز تجارية فى كل مكان فى الرقعة الممتدة من بحر الشمال والبحر البلطى إلى جبال الألب والبحر الأسود . لقد كانت فتوحهم وحشية ، ولكن النتائج أدت إلى رقى لا يستطاع تقديره فى حياة سكان الحدود الاقتصادية والثقافية .

وكان انهماك الأباطرة فى هذه الفترة السالفة الذكر فى شئون إيطاليا ، وحاجتهم المتكررة إلى ضمان تأييد الأشراف والفرسان ، أو مكافأتهم على هذا التأييد بهبات الأرض أو السلطان ، وما طرأ على سلطة الملوك الألمان من الضعف بسبب مقاومة البابا لهم وخروج اللمبارد عليهم ، كان هذا كله قد ترك الأشراف أحراراً يتملكون الأرض فى الريف ، وينزلون الفلاحين منزلة الرقيق ؛ فعلا بذلك شأن الإقطاع فى القرن الثالث عشر فى ألمانيا بينما كان سلطان الملوك يقضى عليه

فى فرنسا : وأصبح الأساقفة الذين قربهم الأباطرة الأولون ليكونوا شوكة فى ظهر الأشراف ، أصبح هؤلاء طبقة ثانية من النبلاء ، لايقلون ثروة وقوة واستقلالا عن الأشراف الدنيويين . ولم يحل عام ١٢٦٣ حتى عهد الإقطاعيون إلى سبعة من الأشراف — هم كبراء أساقفة مينز وتريير ، وكولونى ، ودوقا سكسونيا وباڤاريا ، وكونت پلاتين ومارجريف(*) برندنبرج حق اختيار الملك : وحد هؤلاء الناخبون من سلطان الحاكم ، واغتصبوا الامتيازات الملكية ، واستولوا على أراضى التاج . ولقد كان يسعهم أن يعملوا عمل الحكومة المركزية ويهيئوا للأمة وحدتها ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل كانوا فيما بين الانتخابين يسيرون كما يحلو لهم ؛ ولم تكن أمة ألمانية قد وجدت بعد ، وكل ما كان موجوداً هم السكسون والسوابيون ، والباڤاريون ، والفرنجة . . وكذلك لم يكن هناك برلمان قومى ، بل كانت فى البلاد المختلفة مجالس إقليمية تسمى لاندتاج Landtage . ولما قام مجلس ريشستاغ Reichstag أو مجلس لمجموعة البلاد الألمانية فى عام ١٢٤٧ ، اضمحل فيما بين عهدى الانتخاب ، ولم يعل شأنه إلا فى عام ١٣٣٨ ، وكانت طائفة من الموظفين — من رقيق الأرض أو الأحرار المعينين من قبل الملوك . يؤلفون بيروقراطية مفككة ويكسبون نظام الحكم نوعا من الاستمرار غير المترابط . ولم يكن للبلاد عاصمة موحدة يتركز فيها ولاء الشعب واهتمامه ؛ ولم تكن هناك مجموعة موحدة من القوانين تحكم بها البلاد كلها ، فقد احتفظ كل إقليم بعاداته وقوانينه رغم ما بذله بربرسا من الجهد لفرض القانون الرومانى على ألمانيا كلها . وحدث فى عام ١٢٢٥ أن صيغت قوانين سكسونيا فى كتاب واحد سمى المرآة السكسونية Sachsenspiegel ، وفى عام ١٢٧٥ صيغت قوانين سوابيا وعاداتها فى « المرآة السوابية Schwabenspiegel » ؛ وأيد هذان القانونان ما كان للشعب من حق

(*) مارجريف Margrave لقب من ألقاب الأشراف فى ألمانيا يعادل لقب مركيز فى فرنسا (المترجم) .

قديم فى اختيار ملوكه ، وما كان للفلاحين من حق الاحتفاظ بحريتهم وأرضهم ، وقالت المرآة السكسونية فى هذا الصدد إن رق الأرض والاستعباد يتعارضان مع الطبيعة البشرية ومع إرادة الله ، وأن أصلهما يرجع إلى القوة أو الغش (٢٣) ، لكن رق الأرض أخذ مع ذلك ينمو ويزداد :

وكان عهد آل هوهنستاوفن (١١٨٣ — ١٢٥٤) أعظم العهود الألمانية قبل بسمارك . نعم إن عادات الشعب وآدابه كانت لا تزال خشنة غليظة ، وكانت قوانينه مضطربة هى والفوضى سواء ، وأخلاقه خليطاً من الأخلاق المسيحية والوثنية ، ومسيحيته نصف ستار لانتهاب الأراضى واغتصابها من أصحابها . كذلك لم تكن ثروة الشعب أو وسائل نعيمه تضارع ثروة شعب إيطاليا أو فلاندرز إذا وازنا مدينة فى ألمانيا بمدينة مثلها فى ذينك البلدين الأخيرين . ولكن الفلاحين الألمان كانوا مجدين كثيرى النسل ، وكان التجار الألمان مغامرين ذوى إقدام ، والأشراف أكثر سكان أوربا ثقافة وقوة ، والملوك هم الرؤساء الزمنيين للعالم الغربى يحكمون بلاداً تمتد من نهر الرين إلى نهر الفستيولا ، ومن نهر الرون إلى جبال البلقان ، ومن البحر البلطى إلى الدانوب ، ومن بحر الشمال إلى صقلية . ونشأت وترعرعت مائة مدينة ومدينة بفضل حياتها الاقتصادية الناشطة ، وكان لكثير منها صكوك ومواثيق تؤيد حكمها الذاتى ؛ وأخذت على مر السنين تزداد ثروتها وتزدهر فنونها حتى كانت فى عصر النهضة فخر ألمانيا وشاهداً على عظمتها ومجدها ، وإنا ليعترينا الآن الأسى والحزن على ما كان لها من جمال زال ولم يبق له وجود .

الفصل السابع

اسكنـــديناوة

عادت الدنمرقة إلى الظهور فى التاريخ مرة أخرى فى عهد ولدمار الأول الأول Waldemar I (١١٥٧ - ١١٨٢) بعد أن ظلت مائة عام تنعم بالاختفاء عنه ، فقد استعان هذا الملك بوزيره أبسالون Absalon كبير أساقفة لند Lund على إقامة حكومة قوية ، طهرت البحار من القراصنة . واعتنت الدنمرقة بحماية التجارة وتشجيعها ، وأسس أبسالون فى عام ١١٦٧ مدينة كوبنهاجن Copenhagen أى « مرفأ السوق » - Kjoebenhaven . وردّ ولدمار الثانى (١٢٠٢ - ١٢٤١) على الاعتداءات الألمانية بالاستيلاء على هولستين Holstein ، وهمبرج ، وعلى البلاد الألمانية الواقعة فى الشمال الشرق من نهر الإلب . ثم قام بثلاث حروب « صليبية » ضد صقالبة البحر البطلطى « تكريماً للعذراء المباركة » واستولى على إستونيا الشمالية ، وأسس مدينة ريڤال Reval . وهوجم فى إحدى هذه الحروب وهو فى معسكره ؛ ويقول الرواة إنه نجا من الموت بسببين أولها شجاعته وثانيهما أنه نزلت من السماء فى وقت الهجوم عليه راية حمراء عليها صليب أبيض . وأصبحت هذه الراية المعروفة باسم الدنبرج Dannebrog أى القماش الدنمرقى علم القتال الدنمرقى ؛ وأسره الكونت هنرى الشويرينى Count Henry of Schwerin فى عام ١٢٢٣ ، ولم يطلق سراحه بعد أن قضى فى الأسر عامين ونصف عام إلا بعد أن نزل للألمان على جميع فتوحه الألمانية والصقلبية ما عدا روجن Rügen . وقضى هذا الملك بقية حياته العجيبة النافعة فى الإصلاحات الداخلية وتقنين جميع شرائع الدنمرقة . وكانت مساحة الدنمرقة حين وفاته ضعفى مساحتها فى هذه الأيام ، وكانت تشمل الجزء الجنوبى من بلاد السويد ، وكان عدد سكانها مساويا لعدد سكان السويد (٣٠٠٫٠٠٠) والنرويج (٢٠٠٫٠٠٠)

مجتمعين . ثم ضعفت سلطة الملوك بعد وفاة ولدمار الثانى ، حتى إذا كان عام ١٢٨٢ حصل الأشراف من إرك جلبنج Eric Glipping على عهد يعترف فيه بأن جمعيتهم « الدنهف Danehof » برلمان قومى .

وليس فى مقدور كائن من كان أن يجعلنا نتصور أعمال أهل اسكنديناوة فى هذه الأيام الأولى اللهم إلا إن كان قصّاصاً واسع الخيال ، وحسبنا أن نقول عنها إنها جهود جبارة تبذل فى سبيل الاستيلاء على هذه الشبه الجزيرة الوعرة الخطرة يوماً بعد يوم وقدماً بعد قدم . لقد كانت الحياة لا تزال فيها بدائية ؛ وكانت موارد الغذاء الأولية فيها هى صيد الحيوان والسمك والزراعة . وكان لا بد من تقطيع أشجار الغابات المترامية الأطراف ، وتأنيس الحيوان البرى ، وجر الماء إلى مجار تمكن الأهلين من الإنتاج ، وإنشاء المرافئ البحرية ؛ وكان لا بد من أن يعتاد الرجال الجلد وتحمل المشاق لمغالبة الطبيعة التى بدت وكأنها تغضب من تطفل الإنسان عليها وتدخله فى شئونها . وكان للرهبان السسترسيين Cistercian شأن عظيم فى هذا الكفاح الذى قضوا فيه حياتهم جيلا بعد جيل ، فكانوا يقطعون الأشجار ، ويفلحون الأرض ، ويعلمون الفلاحين أساليب الزرع الراقية . وكان من أبطال هذا الكفاح إيرل برجر Earl Birger رئيس وزراء السويد من ١٢٤٨ إلى ١٢٦٦ . فهو الذى ألغى رق الأرض ، وأقام حكم القانون ، وأسس مدينة استكهولم Stokholm (حوالى عام ١٢٥٥) ، وأنشأ أسرة فولكنج Folkung (١٢٥٠ — ١٣٦٣) بأن أجلس ابنه ولدمار على العرش . وأثرت مدينة برجن لأنها كانت منفذ تجارة النرويج ، وأضحت مدينة فزبى Visby القائمة على جزيرة جتلند Gotland مركز الاتصال بين بلاد السويد والعصبة الهانسية . وشيدت كنائس فخمة ممتازة ، وتضاعف عدد الكنائس الكبرى والمدارس ، وأخذ الشعراء يغنون قصائدهم ؛ وفى القرن الثالث عشر أضحت جزيرة أيسلندة Iceland القائمة بعيداً عن البلاد فى ضباب المحيط الجامد الشمالى أكثر المراكز الاسكنديناوية فى العالم نشاطاً فى الأدب .

الفصل الثامن

إنجلـــــترا

١ - وليم الفاتح

حكم وليم الفاتح إنجلترا حكما جمع فيه بمهارة عظيمة بين الشدة ، والقانون ، والتقوى ، والدهاء ، والخداع . فلما أن رفعه إلى العرش الويتان Witan تحت تأثير الخوف والإرهاب ، أقسم أن يطيع القوانين الإنجليزية المعمول بها وقتئذ . وانتهز بعض الأعيان فى غربى إنجلترا وشماليها فرصة غيابه فى نورمندى وحاولوا إيقاد نار الثورة فى البلاد (١٠٦٧) ، فعاد إليهم واندفع فى البلاد ينتقم من أهلها أشد الانتقام ، فأطلق لنفسه فيه العنان بقتل الأهلين ، ويهلك الحرث والنسل ، ويدمر البيوت بأساليب منظمة محكمة لم تنج إنجلترا من آثارها كلها حتى القرن التاسع عشر[٢٤] . وقسم أخصب أراضى المملكة إلى ضياع واسعة وزعها على أعوانه النورمان ، وشجعهم على بناء قصور حصينة يتخذونها قلاعاً يدافعون بها عن أنفسهم ضد السكان المعادين[*] . واحتفظ هو بمساحات من الأرض واسعة لتكون ملكاً للتاج ، واتخذ قطعة من هذه الأرض طولها ثلاثون ميلا ؛ مسارح للملك يصيد فيها الوحوش . ودمر كل ما كان فى هذه البقعة من منازل ، وكنائس ، ومدارس ليفسح الطريق للخيل والكلاب ، وكان يعاقب كل من يقتل أيلا أو أيلة فى الغابة الجديدة بفقء عينه[٢٥] .

(*) وربما كان ربن هود Robin Hood ، الشهير فى القصص والغامض فى التاريخ الصحيح ، أحد الإنجليز السكسون الذين ظلوا أكثر من مائة عام يحاربون الفاتحين النورمان حرب العصابات . وكان الفقراء الإنجليز يحيون ذكراه ، بوصفه ثائراً لم يغلب يعيش فى غابة شروود Sherwood ، ولا يعترف بالقانون النورمانى وينهب مال الأعيان ، ويساعد أرقاء الأرض ، ويعبد القديسين .

وهكذا نشأت فى إنجلترا طبقة الأشراف الجدد الذين لا يزال أبناؤهم من حين إلى حين يسمون بأسماء فرنسية ، وانتشر الإقطاع الذى كان من قبل ضعيفاً نسبياً فى طول البلاد وعرضها ، وحول الشعب أرقاء أرض . وجعلت الأرض كلها ملكا للملك ، ولكنه سمح للإنجليز الذين استطاعوا أن يبرهنوا على أنهم لم يقفوا فى وجه الفاتحين بأن يعوودا إلى شراء أرضهم من الدولة . وأراد وليم أن يسجل مغانمه ويعرفها ، فأرسل عماله فى عام ١٠٨٣ ليسجلوا اسم مالك كل قطعة من الأرض فى إنجلترا ، وحالها ، ومحتوياتها ؛ وقد ورد فى هذا السجل أن الملك « شدد عليهم فى أوامره تشديداً لم تبق معه ياردة واحدة من الأرض ، لا . . . بل ولا ثور أو بقرة ، أو خنزير ، لم يكتب فى سجله »(٢٦) . وكانت نتيجة هذا العمل هو **كتاب الأعظام** وهو اسم ينذر بما سيكون له من شأن خطير إذ أصبح هو « الحكم » الأخير فى جميع المنازعات العقارية . وأراد وليم أن يضمن لنفسه معونة البلاد الحربية ، ويحد من سلطان أتباعه العظام ، فاستقدم إليه جميع كبار الملاك فى إنجلترا – وكان عددهم ستين ألفاً – إلى اجتماع عقـــد فى سلزبرى Salisbury (١٠٨٦) ، وجعل كل واحد منهم يقسم يمين الإخلاص التام للملك . وكان عمله هذا احتياطاً حكيما ضد الإقطاعية الفردية التى كانت وقتئذ تقطع أوصال فرنسا .

وبعد فلابد للإنسان أن يتوقع قيام حكومة قوية بعد الفتح . وهذا ما حدث فى إنجلترا وقتئذ ، فقد أقام وليم أو خلع فرساناً ونبلاء ، وأساقفة ورؤساء أساقفة وأديرة ؛ ولم يتردد لحظة فى أن يزج فى السجن لوردة عظماء : وأن يتمسك بما له من حق تعيين رجال الدين فى مناصبهم . ويقاربه فى هذه الناحية جريجورى السابع الذى كان مثله ذا حول وطول ، والذى كان فى هذا الوقت عينه يستقدم الإمبراطور هنرى الرابع إلى كنوسا Canossa(*) . وأراد الملك أن يمنع الحرائق

(*) يشير المؤلف هنا إلى مذله كنوسا وسيرد ذكرها فيما بعد (المترجم) .

فأمر سكان إنجلترا بإطفاء نار المدافئ أو تغطيتها(*) قبل الساعة الثامنة مساء ، ومعنى هذا أن يأوى الأهلون إلى فراشهم فى فصل الشتاء فى هذا الوقت(٢٧) . واشتدت حاجته إلى المال للإنفاق منه على حكومته الآخذة فى الاتساع ، وعلى فتوحه المترامية الأطراف ، ففرض ضرائب باهظة على جميع البيوع ، والواردات ، والصادرات ، واستخدام القناطر ، والطرق . وأعاد جميع الضرائب التى ألغاها من قبل إدورد المعترف . ولما علم أن بعض الإنجليز أودعوا أموالهم فى سراديب الأديرة ليخفوها عنه ، أمر بتفتيش جميع الأديرة وبنقل كل ما هو مخبأ فيها إلى بيت ماله ، ولم يكن بلاطه الملكى يتورع عن قبول الرشا ، وتسجيلها بأمانة فى السجل العام(٢٨) . لقد كانت حكومته فى صراحة تامة حكومة فاتحين يعتزمون أن يجعلوا مكاسب مغامرتهم تتناسب مع ما تعرضوا له من الأخطار .

وكان لرجال الدين النورمان نصيبهم من النصر ، فقد جيء بلافرانك Lafranc القدير المرن من كائن Caen ونصب كبيراً لأساقفة كنتربرى وكبيراً لوزراء الملك . فلما جاء وجد رجال الدين الأنجليسكسون مولعين بالصيد ، ولعب النرد ، والزواج(٢٩) ، فاستبدل بهم قساوسة وأساقفة ، ورؤساء أديرة من النورمان ؛ ووضع دستوراً جديداً للأديرة هو المعروف بعادات كنتربرى ، ورفع مستوى رجال الدين الإنجليز من الناحيتين العقلية والخلقية ، وأصدر وليم — بإيحاء منه فى أغلب الظن — قراراً بفصل المحاكم الكنسية عن المحاكم المدنية ، وأمر بأن ينظر فى جميع المسائل الروحية بمقتضى قانون الكنيسة ، وتعهد بأن تنفذ الدولة كل ما تحكم به المحاكم الكنسية من عقوبات . وأمر بأن تجبى العشور من الشعب لمعونة الكنيسة ، ولكنه طلب ألا يذاع أو ينفذ قرار بابوى أو رسالة بابوية فى إنجلترا بغير موافقته ، وألا يدخل إنجلترا مبعوث من قبل البابا إلا بإذن ملكى . وفصلت من ذلك الحين جمعية الأساقفة الوطنية عن الويتان وكانت من قبل جزءاً منه ، وأصبحت

(*) وتسمى هذه العملية باللغة الإنجليزية Curfew . (المترجم)

هيئة مستقلة ، لا تنفذ قراراتها إلا إذا صادق عليها الملك[٣٠] .

ووجد وليم أن حكم مملكته أيسر عليه من حكم أسرته ، شأنه فى هذا شأن الكثرة الغالبة من عظماء الرجال . فقد كانت الإحدى عشرة السنة الأخيرة من حياته مليئة بالنزاع بينه وبين زوجته الملكة ماتلدا Matilda ، وطلب ابنه ربرت أن يكون له السلطان الكامل على نورماندى ، فلما رفض طلبه هذا خرج على أبيه ، وحاربه وليم حرباً غير حاسمة ، ثم صالحه على أن يوصى له بهذه الدوقية بعد وفاته . وزاد جسم الملك زيادة صعب عليه معها أن يركب الخيل ؛ وحارب فليب الأول ملك فرنسا لخلاف على الحدود ؛ ولما طال مكثه فى رون ، وكاد يعجز عن الحركة لبدانته ، سخر منه فليب – على حد قول بعضهم – بأن قال إن ملك إنجلترا « ملازم الفراش للنفاس » ، وأن الشموع ستوقد فى الاحتفال العظيم الذى سيقام فى الكنيسة بعد أن يلد . وأمر وليم جيشه أن يحرق مانت Mantes عن آخرها هى وما جاورها ، وأن تتلف كل المحصولات والفاكهة ، ونفذ أمره بحذافيره . وبينما كان وليم يسير فوق جواده وسط مظاهر التخريب والتدمير وهو ثمل بخمرة النصر إذ عثر به الجواد فسقط فوق قربوس السرج الحديدى ، فحمل إلى صومعة القديس جرڤاس Gervase القريبة من رون ، حيث اعترف بذنوبه اعترافاً كاملا ، وأدلى بوصيته ، وكفر عن هذه الذنوب بأن وزع ثروته على الفقراء والكنيسة ، ووهب المال لإعادة بناء مانت . وترك أبناؤه جميعاً ، عدا هنرى ، فراش موته ليقتتلوا من أجل وراثة العرش ، وفر ضباطه وخدمه بما استطاعوا أن يستولوا عليه من المغانم ؛ وحمل جثته قروى من أتباعه إلى « دير الرجال » Abbay aux Hommes فى كاثن (١٠٨٧) . ووجد أن التابوت الذى صنع له لا يتسع لجثته ؛ فلما أراد الخدم أن يحشروا جسمه الضخم فى هذا التابوت الضيق ، انفجر الجسم ؛ وملأ الكنيسة كلها برائحة الملك الكريهة[٣١] .

وكانت نتائج الفتح النورمانى كثيرة يخطئها الحصر ، فقد فرض شعب جديد

وفرضت طبقة جديدة على الدنمرقيين الذين حلوا محل الإنجليز والسكسون ، الذين غلبوا البريطانيين الرومان ، الذين فرضوا سيادتهم على الكلت[*] ؛ وكان لابد أن تمر عدة قرون قبل أن يثبت الأنجليسكسون والكلت وجودهم في الدم البريطانى واللغة البريطانية ؛ وكان بين النورمان والدنمرقيين أواشج قربى ، ولكنهم فى المائة السنين التى جاءت بعد رولو Rollo أصبحوا فرنسيين ، فلما نزلوا بإنجلترا أصبحت عاداتها الرسمية ولغتها الرسمية عادات ولغة فرنسية ، وظلت كذلك ثلاثة قرون . وجاء مع الفاتحين من فرنسا إلى إنجلترا نظام الإقطاع بكل ما فيه من زينة الخيول ، وفروسية وعلامات الدروع ونقوشها ، والمفردات التى تعبر عنها . وفرض رق الأرض على إنجلترا فرضاً كاملا قاسياً إلى حد لم تعرفه من قبل فى تاريخها[٣٢] ، وكان المرابون اليهود الذين جاءوا مع وليم حافزاً جديداً للتجارة والصناعة ؛ ونشأت من الاتصال الوثيق بين إنجلترا والقارة الأوربية أفكار جديدة فى الأدب والفن ، وبلغ فن العمارة النورمانى ذروة مجده فى بريطانيا ؛ وجاء الأشراف الجدد بعادات جديدة وأخلاق جديدة ، وحيوية جديدة ، وبنظام زراعى خير مما كان فى البلاد من قبل . وحسن الأشراف والأساقفة النورمان النظام الإدارى للدولة تحسيناً كبيراً فقد أصبح الحكم مركزياً ، ووحدت الدولة وإن يكن هذا التوحيد قد تم عن طريق الحكم المطلق ، وأصبحت الحياة والأموال أكثر أمناً من ذى قبل ، وأقبلت إنجلترا على عهد طويل من السلام الداخلى لم تغز بعده أبداً غزواً ناجحاً .

(*) أبقينا هذا التكرار فى اسم الموصول وصلته مجاراة للأصل الإنجليزى لأنه مقصود بذاته . (المترجم)

٢ — تومس أبكت

من الأقوال المأثورة فى إنجلترا أن يتوسط ملك ضعيف بين كل ملكين قويين ، ولكن الحقيقة أن الملوك الضعاف الذين يتوسطون ملكين قويين لا حد لعددهم . ومصداقاً لهذا نقول إنه لما مات وليم الفاتح استولى ابنه ربرت على نورمندى وجعلها مملكة مستقلة ، وتوج ابنه الأصغر منه وليم روفس (الأحمر ١٠٨٧ — ١١٠٠) ملكا على إنجلترا بعد أن قطع على نفسه عهداً بأن يسلك مسلكا حسناً مع لانفكرانك متوّجه ووزيره . وحكم هذا الملك حكما استبداديا حتى عام ١٠٩٣ ، ثم مرض ووعد بأن يكون حسن السلوك ، فلما شفى من مرضه ، عاد إلى استبداده وظل كذلك حتى اغتالته يد مجهولة فى أثناء صيده . وظل الرجل التقى أنسلم الذى أصبح بعد لانفكرانك كبير أساقفة كنتربرى يقاوم مقاومة طويلة ، أعيد بسببها إلى فرنسا .

ودعا ابن ثالث من أبناء وليم الفاتح يدعى هنرى (١١٠٠ — ١١٣٥) أنسلم إلى العودة ، فطلب المطران — الفيلسوف أن يمتنع الملك عن اختيار الأساقفة ، فلما رفض الملك هذا الطلب نشب بينهما نزاع طويل اتفق بعده على أن تختار جمعيات رجال الكنائس والرهبان بحضور الملك نفسه الأساقفة الإنجليز ورؤساء الأديرة ، وأن يقدموا له مراسم الولاء بوصفه مصدر أملاكهم وسلطاتهم الإقطاعية . وكان هنرى يحب المال ويكره التبذير ؛ ولهذا فرض الضرائب الفادحة ولكنه راعى جانب الاقتصاد والعدالة فى حكمه ؛ وحافظ على السلم والنظام فى إنجلترا ، عدا معركة واحدة — فى تنشبريه عام ١١٠٦ — استرد فيها نورمندى إلى التاج البريطانى . وأمر النبلاء أن « يضبطوا أنفسهم فى معاملاتهم لزوجاتهم وأبنائهم وبنات رجالهم »[٣٣] . وكان له هو أبناء غير شرعيين وبنات غير شرعيات من عشيقاته المتعددات[٣٤] ، ولكنه أوتى من الكياسة والحكمة

ما جعله يتزوج مود Maud سليلة الملوك الاسكتلنديين والإنجليز السابقين على عهد النورمان ، فطعم بذلك الأسرة المالكة الجديدة بالدم الإنجليزى القديم .

وأرغم هنرى الأشراف والقساوسة على أن يقسموا يمين الولاء لابنته ما تلدا وابنها الشاب الذى أصبح فيما بعد هنرى الثانى . فلما مات الملك غتصب العرش استيفن أمير بلوا Blois وحفيد وليم ، وظلت إنجلترا أربعة عشر عاما تعانى كوارث الموت والضرائب الفادحة فى حرب داخلية امتازت بأشد ضروب القسوة والإرهاب(٣٥) . وكبر هنرى الثانى فى هذه الأثناء ، وتزوج اليانور الأكتانية Eleanor of Aquitaine واستولى على دوقيتها ، وغزا إنجلترا ، وأرغم استيفن على الاعتراف به وارثاً للعرش . ولما توفى استيفن صار ملكا على انجلترا (١١٥٤) ؛ وبذلك انتهى عهد أسرة النورمان وبدأ عهد أسرة البلانتجنت(*) . وكان هنرى رجلا حاد الطبع ، كثير المطامع ، قوى الذهن ، يميل بعض الميل إلى الكفر بالله(٣٦) . وكانت له السيادة الاسمية على مملكة تمتد من اسكتلندة إلى جبال البرانس ، وتشمل نصف فرنسا ، ولكنه ألفى نفسه بادى العجز فى مجتمع إقطاعى ، مزق فيه كبار الأشراف بجنودهم المرتزقة وحصونهم المنيعة الدولة إلى إقطاعيات يحكمونها بأنفسهم ، ولهذا شرع الملك بنشاط رهيب يجمع المال والرجال ، ويحارب الأشراف ويخضعهم سيداً بعد سيد ، ويدمر القصور الاقطاعية الحصينة ، ويوطد أركان النظام والأمن والعدالة والسلم . وأخضع لحكم إنجلترا أيرلندة التى غلبها ونهبها قراصنة ويلز ؛ وكان فى إخضاعها حكيما مقتصداً فى ماله وفى جنده . ولكن هذا الرجل القوى ، الذى يعدّ من أعظم الرجال فى تاريخ إنجلترا كله ، قد ذل وتحطم حين التقى بتومس أبكت Thomas à Becket ، وهو رجل

(*) كان جوفرى الأنجوى Jeoffrey of Anjou والد هنرى الثانى قد لبس مسلوجاً من نبات الرتم (المسمى planta genêt بالفرنسيه) فى قبعته .

ذو إرادة لا تقل مضاء عن إرادته ودين أعظم قوة من أية دولة قائمة فى ذلك الوقت .

ولد تومس فى لندن عام ١١١٨ من أبوين نورمانيين من أبناء الطبقة الوسطى . واسترعى الغلام انتباه ثيوبولد Theobald كبير أساقفة كنتربرى بذكائه الناضج قبل الأوان ، فأرسله إلى بولونيا Bologna وأكسير Auxerre ليدرس الشرائع المدنية والكنسية . ولما عاد إلى إنجلترا انتظم فى سلك رجال الدين ، وما لبث أن ارتقى فى المناصب الدينية حتى صار كبير شمامسة كنتربرى . ولكنه كان مثل كثيرين غيره من رجال الدين فى تلك القرون الماضية ، رجل عمل أكثر مما كان رجل دين ؛ فكانت الشئون الإدارية والدبلوماسية أكثر ما تظهر فيها مهارته ؛ وأظهر فى هذين الميدانين مقدرة فائقة رفعته إلى مقام الوزارة ولم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره . وساد الوئام بينه وبين هنرى إلى حين ، فكان المستشار الوسيم موضع ثقة الملك فى أخص شئونه ، يشاركه ألعاب الفروسية ، ويكاد يشاركه فى ثروته وسلطانه . وكانت مائدته أفخم الموائد فى إنجلترا كلها ، وكانت صدقاته للفقراء تضارع كرم ضيافته لأصدقائه . وكان فى الحرب يقود بنفسه سبعمائة من الفرسان ، ويبارز الأعداء فرداً لفرد ، ويضع الخطط الحربية ؛ ولما أرسل فى بعثة إلى باريس ارتاع الفرنسيون حين رأوا حاشيته الفخمة المؤلفة من ثمان مركبات ، وأربعين جواداً ، ومائتين من الأتباع ؛ وقالوا فى أنفسهم ترى ماذا يكون الملك الذى له مثل هذا الوزير !

وعين كبيراً لأساقفة كنتربرى فى عام ١١٦٢ ، فلم يكد يتولى منصبه حتى تبدلت أساليبه تبدلا تاماً فجائياً كاملا كأنما حدث ذلك بسحر ساحر ، فتخلى عن قصره الفخم ، وثيابه الملكية ، وأصدقائه من الأشراف ، وبعث إلى الملك باستقالته من الوزارة وارتدى الثياب الخشنة ، فلبس شعاراً من الصوف ، وعاش على الخضر ، والحبوب ، والماء ، وكان فى كل ليلة يغسل قدمى ثلاثة عشر

متسولا وأضحى من ذلك الوقت مدافعاً عن جميع حقوق الكنيسة وامتيازاتها ، ومصادر إيرادها . وكان من بين هذه الامتيازات عدم محاكمة رجال الدين أمام المحاكم المدنية . وثارت ثائرة هنرى ، وهو الذى كان يطمع فى أن يبسط سلطانه على كافة الطبقات ، حين وجد أن المحاكم الكنسية كثيراً ما تترك رجال الدين دون أن تعاقبهم على ما يرتكبونه من الجرائم ، ولهذا دعا فرسان إنجلترا وأساقفتها إلى اجتماع عقده فى كلارندن Clarendon (١١٦٤) ، وحملهم على أن يوقعوا دستور كلارندن الذى قضى على كثير من الحصانات التى كان يتمتع بها رجال الدين . ولكن بكت رفض أن يختم الوثائق بخاتم أسقفيته الكبرى ، فما كان من هنرى إلا أن أذاع القوانين الجديدة غير عابئ بهذا الرفض ، وقدم الرئيس الدينى المريض للمحاكمة أمام المحكمة الملكية . وجاء بكت ، وعارض فى هدوء أساقفته الذين أعلنوا مع الملك أنه مذنب لخروجه على قوانين سيده الإقطاعى ملك البلاد . ولما أمرت المحكمة بالقبض عليه أعلن أنه سيستأنف القضية أمام البابا ، ثم خرج سالماً من القاعة بثيابه الأسقفية التى لم يجرؤ أحد على لمسها . وأطعم فى ذلك المساء عدداً كبيراً من الفقراء فى بيته بلندن ، ثم فر فى أثناء الليل متخفياً سالكاً طرقاً ملتوية إلى القناة الإنجليزية ، وعبر المضيق المضطرب الماء قارب ضعيف ، ووجد ملجأ له فى دير قائم فى سانت أومر St Omer فى بلاد ملك فرنسا ، ثم قدم استقالته من منصب كبير الأساقفة إلى البابا اسكندر الثالث . وأيده البابا فى موقفه ، وأعاد تعيينه فى كرسيه ، ولكنه أرسله ليعيش مؤقتاً معيشة راهب سسترسى فى دير پنتنى Pontigny .

ونفى هنرى من إنجلترا جميع أقارب بكت ذكوراً وإناثاً ، صغاراً كانوا أو كباراً . ولما جاء هنرى إلى نورمندى خرج تومس من صومعته وصعد منبراً فى ڤيزلاى Vezelay ، وأعلن حرمان جميع رجال الدين الإنجليز الذين أيدوا دستور كلارندن (١١٦٦) . وكان جواب هنرى أن هدد بمصادرة أملاك جميع الأديرة

والصوامع القائمة فى إنجلترا ، ونورمندي ، وأنچو ، وأكتين ، والمنتسبة إلى دير پنتني إذا استمر هذا الدير على إيواء بكت . وتوسل الرئيس المرتاع إلى بكت أن يغادر الدير ، وعاش الرجل المتمرد المريض من الصدقات فى نزل قذر ببلدة سان Sens . وأغرى لويس السابع ملك فرنسا البابا اسكندر الثالث ، فأمر هنرى أن يعيد كبير الأساقفة إلى كرسيه ، وأنذره إذا رفض بأنه سيحرم إقامة جميع الصلوات والخدمات الدينية الأقاليم الخاضعة لحكم إنجلترا (١١٦٩) . فاضطر هنرى إلى الخضوع ، وجاء إلى أڤرانش Avranches ، والتقى ببكت ، ووعده بأن يصلح كل ما يشكو منه ، وأمسك بركاب كبير الأساقفة المنتصر وهو يهم بالركوب عائداً إلى إنجلترا (١١٦٩) . فلما عاد تومس إلى كنتربرى كرر قرار الحرمان على الأساقفة الذين قاوموه . فذهب بعضهم إلى هنرى فى نورمندى وأثاروا غضبه ، ولعلهم بالغوا فى وصف مسلك بكت . فصاح هنرى قائلا : « عجباً ! . . . أيجرؤ رجل يُطعم خبزى . . . على أن يهين الملك والمملكة جميعها ، ولا يأخذ بحقى واحد من أولئك الخدم الكسالى الذين يُطعمون على مائدتى فيغسل تلك الإهانة ؟ » . وذهب إلى إنجلترا أربعة من الفرسان الذين سمعوه ، من غير علم الملك على ما يظهر ؛ ووجدوا كبير الأساقفة عند مذبح كنيسة كنتربرى فى يوم ٣٠ من ديسمبر سنة ١١٧٠ ، فقطعوا جسمه بسيوفهم وهو واقف فى مكانه .

وروعت المسيحية كلها وثار ثائرها على هنرى ودمغته من تلقاء نفسها بطابع الحرمان العام . فاعتزل الملك العالم فى حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ؛ أصدر بعدها أمره بالقبض على القتلة ، وبعث بالرسل إلى البابا يعلنون براءته من الجريمة ، ووعد بأن يكفّر عن ذنبه بالطريقة التى يرتضيها الإسكندر . ثم ألغى دستور كلارندن ، وردّ إلى الكنيسة جميع مالها فى بلاده من حقوق وأملاك . وقام الناس فى هذه الأثناء يقدسون بكت ويعلنون أن معجزات كثيرة حدثت عند قبره ، وأعلنت الكنيسة قداسته رسميا (١١٧٢) ، وسرعان ما أخذت الآلاف

المؤلفة تحج إلى ضريحه . وجاء هنرى أخيراً إلى كنتربرى حاجا نادماً ؛ ومشى الثلاثة الأميال الأخيرة من الطريق على الحجارة الصوان حافى القدمين ينزف الدم منهما ؛ ثم استلقى على الأرض أمام قبر عدوه الميت ، وطلب إلى الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم ؛ وهكذا تحطمت إرادته القوية أمام السخط العام عليه والمتاعب المتزايدة فى بلاده . وأخذت زوجته إليانور ، التى طردها الملك الزانى وسجنها ، تأتمر به مع أبنائه لتخلعه عن العرش ؛ وتزعم هنرى أكبر أبنائه فتنتين إقطاعيتين قامتا عليه فى عامى ١١٧٣ و ١١٨٣ ، ومات وهو خارج على أبيه . ثم تحالف ولداه رتشرد وچون ، بعد أن طال انتظارهما موته ، مع فليب أغسطس ملك فرنسا وانضما يه فى حرب ضد أبيهما ، ولما طرد من لمان Le Mans جهر بالطعن على الإله الذى حرمه من البلدة التى ولد فيها وأحبها ، ومات فى شينون Chinon (١١٨٩) ؛ وكان آخر ما نطق به أن سب أولاده الذين غدروا به ، والحياة التى وهبته المجد والسلطان ، والغنى ، والعاشقات ، والأعداء ، والعار ، والغدر ، والهزيمة .

لكنه لم يخفق الإخفاق كله . نعم إنه قد سلم لبكت الميت بما لم يسلم به لبكت الحى ، لكن حجة هنرى هى التى كسبت المعركة على توالى الأيام : ذلك أن المحاكم المدنية هى التى وسعت اختصاصها وبسطت سلطانها فى عهد كل ملك جاء بعده على رعايا الملك سواء كانوا من رجال الدين أو رجال الدنيا(٣٧) . ولقد حرر القانون الإنجليزى من القيود الكنسية والإقطاعية ، ومهد السبيل لنمائه ذلك النماء الذى جعله من أجل الأعمال التشريعية التى ظهرت منذ عهد رومة الإمبراطورية . ولقد حذا حذو جده العظيم وليم الفاتح فقوّى حكومة إنجلترا ووحّدها بإخضاع الأشراف المتمردين الذين أشاعوا الفوضى فى البلاد إلى القانون والنظام . وكان نجاحه فى هذه الناحية أكثر مما يجب أن يكون : ذلك أن الحكومة المركزية قويت حتى كادت تصبح حكومة مطلقة غير مسئولة إلى أقصى حد ، وحتى

كانت الجولة الثانية فى المعركة التاريخية بين النظام والحرية هى التى قام بها الأشراف المناضلون عن الحرية .

٣ — العهد الأعظم أو مجنا كارتا

لقد ورث رتشرد الأول الملقب بلقب الأسد عرش أبيه دون أن ينازعه منازع ، وكان رتشرد ابن اليانور المغامرة المتهورة التى لا تغلب ، ولقد تتبع خطاها ولم يتبع خطا هنرى القدير النَّكِد . ووُلد رتشرد فى أكسفورد ١١٥٧ وانتدبته أمه ليصرف شئون أملاكها فى أكتين ، وفيها أشربت نفسه بثقافة پروڤانس المتشككة ، و« بعلوم » الشعراء الغزليين « المرحة » ولم يعد قط رجلا إنجليزيا . وكان حبه للمغامرات والغناء أكثر من حبه للسياسة والإدارة ، وامتلأت الاثنتان والأربعون سنة التى عاشها بحوادث روائية تكفى لأن تملأ مائة عام ، وكان لشعراء زمانه مثالا يحتذونه ونصيرا يلقون منه التشجيع . وقد قضى الخمسة الشهور الأولى من حكمه فى جمع المال اللازم لحرب صليبية ؛ فخص بهذا الغرض جميع الأموال التى خلفها وراءه هنرى الثانى ، وأقصى آلافاً من الموظفين ثم أعاد تعيينهم نظير جعل يتقاضاه منهم ، وباع صكوكاً بالحرية للمدن التى تستطيع أداء ثمنها ، واعترف باستقلال اسكتلندة نظير ١٥٫٠٠٠ مارك ، ولم يقبل هذا الثمن القليل لأنه يزهد فى المال بل لأنه شديد الحب للمغامرات . ولم يمض على اعتلائه العرش نصف عام حتى أبحر إلى فلسطين ، ولم يكن حرصه على سلامته أكثر من حرصه على حقوق غيره ؛ وقد أثقل كاهل البلاد بالضرائب إلى أقصى طاقتها ، وبدد ما جمعه من المال فى الترف ، والولائم ، والمظاهر الكاذبة ، واندفع فى العمل خلال العقد الأخير من القرن الثانى عشر بجرأة وتهور جعلا زملاءه الشعراء يضعونه فى صف الإسكندر ، وآرثر ، وشارلمان .

وحارب صلاح الدين وأحبه ، وعجز عن هزيمته وأقسم أن يهزمه ، وقفل

راجعا إلى بلاده وأسره فى طريق عودته (١١٩٢) ليوپولد دوق النمسا ، وكان قد أساء إليه فى آسية ، وأسلمه ليوپولد فى بدء عام ١١٩٣ إلى الإمبراطور هنرى السادس . وكان لهنرى هذا ثأر قديم عند هنرى الثانى ورتشرد ، واحتفظ هنرى السادس بملك إنجلترا سجيناً فى حصن ببلدة درنشتين Dürnstein على نهر الدانوب على الرغم من القانون الذى كان معترفا به فى أوربا بوجه عام والذى يحرم اعتقال رجال الحروب الصليبية ؛ وطلب إلى إنجلترا فدية قدرها ١٥٠٫٠٠٠ مارك (١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) أى نصف الإيراد السنوى لأملاك التاج البريطانى . وكان چون أخو رتشرد وقتئذ يحاول اغتصاب العرش ، فلما لقى مقاومة فر إلى فرنسا وانضم إلى فليب أغسطس فى هجومه على إنجلترا . ونكث فليب بعهد قطعه على نفسه بالمحافظة على السلم ، فهاجم الأملاك الإنجليزية فى فرنسا واستولى عليها ، وعرض رشا كبيرة على هنرى السادس ليبقى رتشرد أسيراً . وضاقت نفس رتشرد بسجنه المريح ، وكتب قصيدة من الشعر الممتاز(٣٨) ، يطلب فيها إلى بلاده أن تفتديه من الأسر . وكانت إليانور فى أثناء هذه الأحداث المضطربة تحكم البلاد حكماً ناجحاً بوصفها نائبة عن الملك معتمدة على النصائح الحكيمة التى يقدمها لها القاضى الأكبر هيوبرت ولتر Hubert Walter كبير أساقفة كنتربرى ، ولكنهما وجدا من العسير عليهما جمع الفدية المطلوبة . ولما أطلق سراح رتشرد آخر الأمر (١١٩٤) أسرع إلى إنجلترا ، وجبى الضرائب وجمع الجند وقاد بنفسه جيشاً عبر به القناة الإنجليزية ليثأر لنفسه ولإنجلترا من فليب . وتقول الرواية المأثورة إنه ظل عدة سنين يرفض القداس لئلا يطلب إليه أن يصفح عن عدوه الغادر . فلما تم له استعادة جميع الأملاك التى استولى عليها فليب ركن إلى السلم التى أمكنت فليب من أن يعيش . وتنازع فى هذه الأثناء مع أحد أتباعه الإقطاعيين وهو أدهمار Adhemar ڤيكونت مدينة ليموج Limoges ، وكان قد وجد كنزاً من الذهب مخبوءاً فى أرضه ، وعرض على رتشرد جزءاً منه ، لكن رتشرد أبى إلا أن

يأخذه كله ، وحاصر أدهمار . وأصاب رتشرد سهم منطلق من قصر أدهمار الحصين فمات رتشرد « قلب الأسد » فى الثالثة والأربعين من عمره إثر نزاع قام على كومة من الذهب .

وخلفه على العرش أخوه چون (١١٩٩ — ١٢١٦) بعد أن لقى بعض المقاومة وعدم الثقة ، وبعد أن اضطره ولتر كبير الأساقفة أن يقسم حين تتويجه أنه قد نال عرشه منتخبا من الأمة (أى الأعيان والمطارنة) وبنعمة الله . ولكن چون الذى خان أباه ، وأخاه ، وزوجه ، لم تكن تقف فى وجهه يمين أخرى بعد أيمانه الماضية أو يهتم كثيراً بهذه اليمين ، ولم يكن يبدو عليه شىء من التمسك بالعقائد الدينية شأنه فى هذا شأن هنرى الثانى ورتشرد الأول ، حتى ليقال إنه لم يتناول قط القربان المقدس بعد أن بلغ سن الرشد ، بل لم يتناوله أيضاً فى يوم تتويجه(٣٩) . واتهمه الرهبان بالكفر وقالوا إنه اقتنص مرة وعلاً سميناً وقال : « ما أسمن هذا الحيوان وما أحسن طعامه ! ولكنى أقسم أنه لم يسمع قط بالقداس » وغضب الرهبان من قوله هذا لأنه رأوا فيه سخرية ببدانتهم(٤٠) . وكان چون رجلا حاد الذهن مجرداً من الضمير ، وكان إدارياً حازماً ممتازاً « ولم يكن صديقاً حميماً لرجال الدين » ، ولهذا افترى عليه بعض الافتراء المؤرخون الإخباريون من رجال الأديرة كما يقول هولنشد Holinshed(٤١) ؛ ولم يكن مخطئاً على الدوام ، ولكنه كثيراً ما أغضب الناس بمزاجه الحاد ، وملحه ، وفكاهاته البذيئة الشائنة ، واستبداده وغطرسته ، وما فرضه من الضرائب الفادحة التى يحس أنه مضطر إليها للدفاع عن الأملاك الإنجليزية فى القارة ضد فليب أغسطس .

ونال چون فى عام ١١٩٩ على إذن من البابا إنوسنت الثالث بتطليق إزبل Isabel أميرة جلوسستر Gloucester بحجة أنها تمت إليه بصلة القرابة ، ولم يلبث

(*) ويسمى من قبيل السخرية بالذى لا أرض له Laekland لأنه لم ينل من أبيه إقطاعية فى أرض القارة كما نال أخوه .

بعد طلاقها أن تزوج بإزبلا أميرة أنجوليم Isabella of Angoulême رغم أنها كانت مخطوبة لكونت لوزنيان Lusignan . وغضب الأشراف فى كلا البلدين لهذا العمل واستنجد الكونت بفليب ليأخذ له بحقه . واحتج فى الوقت نفسه بارونات أنجو ، وتورين ، وپواتو Poitou ، ومين لدى فيليب قائلين إن جون يستبد بأقاليمهم . وكانت فروض الطاعة الإقطاعية التى ترجع إلى عهد تسليم نورمندية إلى رولو تقضى بأن يعترف الأعيان الإقطاعيون فى فرنسا ، حتى فى المقاطعات التى تملكها إنجلترا ، بملك فرنسا سيداً إقطاعياً عليهم ؛ وكان جون حسب قانون الإقطاع ، بوصفه دوق نورمندية ، تابعاً لملك فرنسا ، وأمر فليب تابعة الملكى بالقدوم إلى باريس ، ليبرئ نفسه من عدة تهم وادعاءات ، وأبى جون أن يطيع الأمر ، فقضت محكمة الإقطاع الفرنسية بمصادرة أملاكه فى فرنسا ، ومنحت نورمندية ، وأنجو ، وپواتو لآرثر كونت بريطانى Briltany وحفيد هنرى الثانى . وطالب آرثر بعرش إنجلترا ، وحشد لذلك جيشاً ، وحاصر الملكة إليانور فى ميرابو Mirabeau ، فقادت الملكة بنفسها ، وهى فى الثمانين من عمرها ، قوة للدفاع عن ولدها المشاكس . وأنقذها جون من عدوها ، وقبض على آرثر ، ويبدو أنه أمر بقتله ، فما كان من فليب إلا أن غزا نورمندية ، وكان جون وقتئذ يقضى شهر العسل فى رون وفى شغل شاغل عن قيادة جنده ، فمنوا بالهزيمة . وفرجون إلى إنجلترا ، وانتقلت نورمندية ، ومين ، وأنجو ، وتورين إلى التاج الفرنسى .

وبذل البابا إنوسنت الثالث ، ولم يكن على وئام مع فليب ، كل ما فى وسعه لمساعدة جون ، ثم دب النزاع بينه بين جون . وكان سبب هذا النزاع أنه على أثر وفاة هيوبرت ولتر (١٢٠٥) حمل الملك كبار الرهبان فى كنتربرى على أن يختاروا جون ده جراى John de Gray ، أسقف نورك Norwich للمنصب الشاغر ، ولكن طائفة من الرهبان الشبان اختارت رجنلد Reginald نائب رئيس ديرهم ليكون كبيراً للأساقفة . وأسرع المرشحان المتنافسان إلى رومة

يطلب كل منهما تأييد البابا ؛ ولكن إنوسنت رفض أن يؤيدهما جميعاً ، وعين في المنصب الشاغر استيفن لانجتن Stephen Langton ، وهو مطران إنجليزي قضى الخمس والعشرين سنة الأخيرة مقيماً في باريس ، وكان وقت اختياره أستاذاً للاهوت في جامعتها . واحتج چون على هذا الاختيار وقال إن لانجتن لم يكن لديه ما يؤهله لأن يشغل أكبر منصب ديني في إنجلترا ، وهو منصب يجمع بين الوظائف السياسية والدينية . وتجاهل إنوسنت احتجاج چون ، ودشن استيفن كبيراً لأساقفة كنتربري (١٢٠٧) في ڤيتربو Viterpo من أعمال إيطاليا . وتحدى چون لانجتن بأن يطأ بقدمه أرض إنجلترا ، وأنذر رهبان كنتربري العصاة بحرق الأديرة فوق رؤوسهم ، وأقسم « بأسنان الله » بأن ينفي كل قس كاثوليكي من إنجلترا إذا أصدر البابا قراراً بحرمانها ، ويسمل أعين بعضهم ويجدع أنوفهم جزاء وفاقاً لهم على فعل رئيسهم . وأصدر البابا قرار الحرمان (١٢٠٨) ، وامتنعت كل الخدمات الدينية في إنجلترا ما عدا التعميد والمسح وقت الوفاة . وأغلق القساوسة الكنائس ، وسكنت الأجراس ، ودفن الموتى في أرض لم تدشن ؛ ورد چون على هذه الأعمال بمصادرة جميع أملاك الكنائس والأديرة وأعطاها لغير رجال الدين ؛ وحرم إنوسنت الملك من حظيرة المسيحية ، ولكن چون لم يعبأ بقرار الحرمان ، وانتصر في عدة وقائع حربية أيرلندة ، واسكتلندة وويلز . ووجفت قلوب الشعب هلعاً من قرار الحرمان ، ولكن الأشراف رضوا بانتهاب أملاك الكنيسة لأن ذلك الانتهاب يحول نهم الملك إلى حين عن أملاكهم هم .

واختال چون عجباً بانتصاره المؤقت ، وأساء إلى الكثيرين بتطرفه عنته ؛ فقد هجر زوجته الثانية ليلد أطفالا غير شرعيين من عشيقات مستهترات ، وزج اليهود في السجن لينتزع منهم أموالهم ، وترك بعض المطارنة السجناء

يموتون من فرط المشقة ، وأغضب الأشراف بأن أضاف الإهانات إلى الضرائب الفادحة ، وتشدد فى تنفيذ قانون الغاباب البغيض . ولجأ إنوسنت فى عام ١٢١٣ إلى آخر ملجأ له ، فأصدر مرسوماً بخلع الملك الإنجليزى عن العرش ، وأعفى رعايا چون من يمين الطاعة التى أقسموها له ، وأعلن أن أملاك الملك أضحت غنيمة مشروعة لكل من يستطيع انتزاعها من يديه النجستين . وقبل فليب أغسطس الدعوة ، وحشد جيشاً رهيباً ، وزحف به على شاطئ القناة الإنجليزية . واستعد چون لصد الغزو ، ولكنه تبين وقتئذ أن أعيان البلاد لن يساعدوه فى حرب ضد بابا مسلح بقوة مادية ودينية معاً . واستشاط الملك غضباً من فعلتهم ، ورأى فى الوقت نفسه خطر الهزيمة محدقاً به . فعقد اتفاقا مع پندلف Pandulf ، مبعوث البابا مضمونه أنه إذا ألغى إنوسنت قرار الحرمان الصادر على الملك وعلى إنجلترا ، وقرار الخلع ، واستحال من عدو إلى صديق ، فإن چون يتعهد بأن يرد إلى الكنيسة كل ما صادره من أملاكها ، وأن يضع تاجه ومملكته تحت سيادة البابا الإقطاعية . واتفق الطرفان على هذا ، وأسلم چون إنجلترا كلها للبابا ، ثم استعادها منه بعد خمسة أيام بوصفها إقطاعية بابوية تدين للبابا بالولاء وتؤتى الجزية عن يد وهى صاغرة (١٢١٣) .

وأقلع چون إلى بواتو ليهاجم فليب ، وأمر بارونات إنجلترا أن يتبعوه بالسلاح والرجال ، ولكنهم لم يطيعوا أمره . وأدت هزيمة چون عند بوڤين Bouvines إلى حرمانه من الألمان وغيرهم من أحلافه الذين كان يتطلع إلى معونتهم ضد توسع فرنسا ، فعاد إلى إنجلترا ليواجه الأشراف الحانقين . واستاء النبلاء من فدح الضرائب المفروضة عليهم لتمويل حروبه المخربة ، ومن خروجه على السوابق القديمة والقوانين المرعية ، وتسليمه إنجلترا ليشترى به عفو البابا وتأييده . وأرد چون أن يحسم الأمر فيما بينه وبينهم فطلب إليهم أن يؤدوا اه قدراً من المال بدل الخدمة العسكرية ، ولكنهم بعثوا إليه بدلا من هـذا المال بوفد يطلب إليه العودة إلى

قوانين هنرى الأول ، التى حمت حقوق الأشراف وحددت سلطات الملك . فلما لم يتلق الأشراف جواباً مرضياً حشدوا قواتهم المسلحة عند استامفورد Stamford ، وبينا كان جون يتلكأ فى أكسفورد بعثوا برسلهم إلى لندن ، فنالوا تأييد حكومة المدينة وحاشية الملك . وعسكرت قوات الأشراف مقابل مؤيدى الملك القلائل عند رنيميد Runnymede على نهر التامز . وهنا استسلم جون استسلامه الثانى الكبير ، ووقع (١٢١٥) العهد الأعظم أشهر وثيقة فى التاريخ الإنجليزى كله :

من جون ملك إنجلترا بعناية الله تعالى . . . إلى كبار أساقفته ، وأساقفته ، ورؤساء أديرته ، وحملة ألقاب إيرل وبارون . . . وجميع رعاياه الأوفياء . تحية . اعلموا أننا بهذا العهد الحاضر نؤكد عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر :

١ — أن ستكون كنيسة إنجلترا حرة لا يعتدى على شىء من حقوقها وحرياتها . . . .

٢ — أننا نمنح جميع الأحرار فى مملكتنا ، عنا وعن ورثتنا إلى أبد الدهر ، جميع الحريات المدونة فيما بعد . . . .

١٢ — ألا يفرض بدل خدمة أو معونة . . . إلا المجلس العام لمملكتنا .

١٤ — لكى يجتمع المجلس العام المختص بتقدير المعونات وبدل الخدمات . . . سنأمر باستدعاء كبار الأساقفة ، والأساقفة ، ورؤساء الأديرة ، وحملة ألقاب إيرل ، وكبار البارونات فى البلاد(*) . . . وغيرهم ممن هم تحت رياستنا . . .

١٥ — لن نجيز فى المستقبل لكائن من كان أن يأخذ معونة من مستأجريه الأحرار (غير الأرقاء) ، إلا إذا كان ذلك لافتدائه ، أو تنصيب ابنه الأكبر فارساً ، أو مرة واحدة لزواج ابنته الكبرى ؛ ولن تكون المعونة فى هذه الحالة إلا معونة معقولة . . .

(*) أصبحت هذه الطوائف الخمس المذكورة هنا مجلس اللوردات الإنجليزى فيما بعد .

١٧ — لن تعرض الشكاوى العادية على محكمتنا ، بل ينظر فيها فى مكان محدد ؛

٣٦ — لن يعطى أو يؤخذ بعد الآن شىء نظير أمر يطلبه شخص ببحث حاله . . . بل يجب أن يعطى هذا الأمر بغير مقابل (أى أنه يجب ألا يطول حبس إنسان من غير محاكمة) .

٣٩ — لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو ينزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو ينفى ، أو يؤذى بأى نوع من الإيذاء . . . إلا بناء على محاكمة قانونية أمام أقرانه (أى المساوين له فى المدينة) أو بمقتضى قانون البلاد ؛

٤٠ — لن نبيع العدالة أو حقاً من الحقوق لإنسان ما ولن نحرم منها إنساناً ما .

٤١ — يتمتع جميع التجار بحق الدخول فى إنجلترا والإقامة فيها والمرور بها براً أو بحراً سالمين مؤَمَّنين للشراء والبيع . . . دون أن تفرض عليهم ضرائب غير عادلة ؛

٦٠ — كل العادات والحريات السالفة الذكر . . . يجب أن يراعيها أهل مملكتنا كلهم ، سواء منهم رجال الدين وغير رجال الدين ، كل فيما يخصه ، نحو أتباعهم .

وقعناه بيدنا بحضور الشهود ، فى المرج المعروف باسم رينميد فى اليوم الخامس عشر من شهر يونية من السنة السابعة عشرة من حكمنا[٤٢] .

والعهد الأعظم أساس الحريات التى يتمتع بها العالم الناطق باللغة الإنجليزية فى هذه الأيام ، والحق أنه خليق بهذه الشهرة . نعم إنه مقيد ببعض القيود ، فهو ينص على حقوق النبلاء ورجال الدين أكثر مما ينص على حقوق الشعب كله ، ولم تبين فيه الوسائل الكفيلة بتنفيذ الإشارة الدالة على التقى والصلاح الواردة فى المادة رقم ٦٠ من العهد ؛ ولقد كان العهد انتصاراً للإقطاع لا للدمقراطية .

كل هذا صحيح ولكنه نص على الحقوق الأساسية وحماها ، وقرر عدم إطالة حبس إنسان بلا محاكمة ، كما أقر نظام المحلفين ، وأعطى البرلمان الناشئ سلطة على المال اتخذتها الأمة فيما بعد سلاحا لمقاومة الاستبداد ، وبدل الملكية المطلقة ملكية دستورية مقيدة .

بيد أن چون لم يفكر قط فى أنه قد خلد اسمه بالنزول عن سلطاته ومطالبه الاستبدادية ، فقد وقع العهد وهو مرغم ، وأخذ غداة توقيعه يأتمر لإلغائه . فقد لجأ إلى البابا ، وكانت سياسة إنوسنت الثالث وقتئذ تهدف إلى استعانة إنجلترا على فرنسا ، فخف لمعونة تابعه الذليل المهان بأن أعلن أن العهد باطل لا قيمة له ، وأمر چون ألا يخضع لشروطه ، كما أمر الأشراف ألا ينفذوها ، فلما رفض البارونات إطاعة أمره ، أصدر قراراً بحرمانهم هم وأهل لندن والثغور الخمسة ؛ غير أن استيفن لانجتن الذى كانت له اليد الطولى فى صياغة العهد أبى أن ينشر قرار الحرمان ؛ وقرر مبعوثو البابا فى إنجلترا وقف لانجتن عن العمل ، وأذاعوا قرار البابا ، وجندوا جيشاً من المرتزقة فى فلاندرز وفرنسا ، وهاجموا النبلاء الإنجليز ، وأعملوا فيهم النار والسيف ، والسلب والقتل والفسق . ويبدو أن الأشراف لم يلقوا من الشعب معونة خليقة بأن يعتمدوا عليها ؛ ولهذا فإنهم بدل أن يقاوموا الغزاة بقواهم الإقطاعية ، دعوا لويس ابن ملك فرنسا ليغزو إنجلترا ، ويدافع عنهم ، ويستولى على عرش البلاد جزاء له على عمله ؛ ولو نجحت هذه الخطة لأصبحت إنجلترا جزءاً من فرنسا . وحذر مبعوثو البابا لويس من عبور القناة ، فلما خالف أمرهم حرموه هو وجميع أتباعه من حظيرة الدين . ووصل لويس إلى لندن ، وتقبل ولاء البارونات وخضوعهم ، ولكن چون انتصر فى كل مكان خارج عن مدينة لندن التجارية ، وكان حين ينتصر قاسياً مجرداً من الرحمة ، ولكنه وهو فى عنفوان نشاطه ونصره أصيب بزحار البطن ، واتخذ طريقه وهو فى شدة

الألم إلى أحد الأديرة ، ومات فى نيوارك Newark فى التاسعة والأربعين من عمره .

وتوج قاصد رسولى ابنا لجون لايتجاوز السادسة من عمره ملكا على إنجلترا باسم هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) ؛ وعين له مجلس وصاية برياسة إيرل بمبروك Pembroke . وشجع الأشراف ارتقاء واحد منهم إلى هذا المنصب ، فانحازوا إلى هنرى وأرجعوا لويس إلى فرنسا . وشب هنرى وكان ملكا فنانا ، خبيراً بالجمال ، وكان هو الموحى ببناء دير وستمنستر وواهب المال لهذا البناء . وحسب العهد قوة تعمل على التفكك وحاول إلغاءه ولكنه عجز . وفرض الضرائب على النبلاء وأرهقهم إرهاقا أوشكوا من أجله أن يثوروا عليه ، وكان كلما فرض ضريبة أقسم أنها ستكون آخر الضرائب . وكان البابوات أيضاً فى حاجة إلى المال ، وأخذوا يجبون العشور من الأبرشيات الإنجليزية برضاء الملك ليمدوا البابوية بالمال فى حربها مع فردريك الثانى . وكانت ذكرى هذا الابتزاز هى التى مهدت السبيل لثورة ويكلف Wycliffe وهنرى الثامن .

وكان إدورد الأول (١٢٧٢ — ١٣٠٧) أقل شغفا بالعلم وأكثر عناية بشئون الملك من أبيه . كان رجلا طموحا ، قوى الإرادة ، صبوراً فى الحرب . داهية فى السياسة ، خبيراً بالفنون العسكرية وجر المغانم ، ولكنه يستطيع إذا شاء أن يكون معتدلا حذراً ، بعيد النظر فى أهدافه ؛ ولهذا كان حكمه من أكثر الأحكام نجاحا فى التاريخ الإنجليزى كله . فقد أعاد تنظيم الجيش ، ودرب قوة كبيرة من الرماة على استخدام القوس السمحة ، وأنشأ قوة من الجيش المرابط بأن أمر كل إنجليزى قادر على حمل السلاح أن يكون لديه سلاح وأن يتعلم طريقة استخدامه . ولقد وضع بهذا العمل على غير علم منه أساسا عسكريا للدمقراطية . ولما تمت له هذه القوة فتح بها بلاد ويلز ، وكسب اسكتلندة ثم فقدها ، ورفض أداء الجزية التى تعهد چون بأدائها للبابوات ، وألغى سيادة البابا على إنجلترا .

ولكن أهم ما حدث فى حكمه هو نمو البرلمان ، ولعل إدورد قد صار بغير رضاه أهم شخصية فى أعظم ما حدث فى إنجلترا من أعمال جليلة — وهو التوفيق ، فى الحكم وفى الأخلاق ، بين الحرية والقانون .

٤ — نشأة القانون

وهذه الفترة — من فتح النورمان إلى إدورد الثانى — هى التى اتخذ فيها قانون إنجلترا واتخذت فيها حكومتها الصورتين اللتين احتفظتا بهما حتى القرن التاسع عشر . فقد أصبح القانون الإنجليزى قومياً للمرة الأولى بعد أن بسط القانون الإقطاعى النورمانى سلطانه على القانون الإنجليسكسونى المحلى . فلم يعد القانون الإنجليزى بعدئذ هو قانون إسكس Essex أو مرسيا Mercia أو القانون الدنمرقى بل أصبح « قانون البلاد وعاداتها » ، وإن من العسير علينا أن ندرك الآن ما تنطوى عليه هذه العبارة السالفة الذكر حين نطق بهما رانلف ده جلانفيـل Ranulf de Glanville (المتوفى عام ١١٩٠)(٤٣) . ولقد اشتهر القانون الإنجليزى والمحاكم الإنجليزية بفضل الدفعة القوية التى دفعها بها هنرى الثانى وبفضل قيادة جلانفيل كبير القضاة ، اشتهرا بالإنصاف وسرعة الفصل فى المنازعات (مع شىء من الفساد والرشوة) شهرة حملت ملوك أسبانيا المتخاصمين على أن يعرضوا منازعاتهم على محاكم إنجلترا(٤٤) . ولربما كان جلانفيل هو مؤلف « **رسالة فى القانون** » Tractatus de Legibus التى تعزوها إليه الرواية المأثورة ، وسواء كان ذلك أو لم يكن فإن هذه الرسالة هى أقدم ما لدينا من الكتب فى القانون الإنجليزى . وبعد نصف قرن من ذلك الوقت (١٢٥٠ — ١٢٥٦) أخرج هنرى ده براكتن Henry de Bracton أول خلاصة منظمة للقانون الإنجليزى فى كتابه « **فى قوانين إنجلترا وعاداتها** » Delegibus et Consuetudinibus Anglise وهو كتاب فى خمسة مجلدات ومرجع من أهم المراجع فى القانون الإنجليزى .

وكانت حاجة الملك المتزايدة إلى المال والجند هى التى أدت إلى اتساع الوتنجموت Witengemot الإنجليسكسونى حتى أصبح هو البرلمان الإنجليزى . ذلك أن هنرى الثالث أراد أن يحصل على المال أكثر مما يرغب الأعيان فى أن يمدوه به ، وألا يصبر حتى يوافقوا على طلباته ، فاستدعى فارسين من كل مقاطعة لينضموا إلى البارونات والمطارنة فى المجلس العظيم الذى عقد فى عام ١٢٥٤ . ولما تزعم سيمون ده منت فورت Simon de Montfort ، وهو ابن محارب صليبى من الأسرة الألبجنسية ، ثورة قام بها النبلاء على هنرى الثالث فى عام ١٢٦٤ ، أراد أن يضم الطبقات الوسطى إلى قضيته ، فلم يكتف بدعوة فارسين من كل مقاطعة بل دعا أيضاً اثنين من المواطنين البارزين من كل قصبة مقاطعة أو كل بلدة لينضموا إلى البارونات فى جمعية وطنية . وكان خليقاً بهؤلاء الرجال أن يستشاروا هل يؤدون المال أو يكتفون بالكلام ، وذلك لأن البلدان كانت آخذة فى النماء ، وكان التجار ذوى مال . وأفاد إدورد الأول من المثل الذى ضربه له سيمون ، فلما أن تورط فى الحرب مع اسكتلندة ، وويلز ، وفرنسا فى وقت واحد ، اضطر أن يطلب المال من جميع طبقات الأمة ، فدعا لهذا الغرض « البرلمان النموذجى » فى عام ١٢٩٥ وهو أول برلمان كامل فى تاريخ إنجلترا . وقال فى مرسوم الدعوة إن « ما يمس الناس جميعاً يجب أن يوافقوا جميعاً عليه ، وإن الأخطار العامة يجب أن تقابل بوسائل يتفقون عليها جميعاً »[٤٥] . ولهذا دعا إدورد اثنين من أهل « كل مدينة ، وقصبة مقاطعة ، وبلدة كبيرة » للحضور فى المجلس الأكبر الذى سيعقد فى وستمنستر ، ونص على أن يختار أولئك الرجال ذوو المكانة من المواطنين فى كل منطقة ، ذلك أنه لم يكن أحد يحلم وقتئذ بحق الانتخاب العام فى مجتمع لا تعرف القراءة فيه إلا أقلية صغيرة ، بل إن « العامة » فى « البرلمان النموذجى » نفسه لم يكن لهم من السلطان ما للأشراف . ولم يكن قد وجد بعد برلمان سنوى يجتمع بمحض

إرادته ويكون هو المصدر الوحيد للتشريع . ولكن اتفق فى عام ١١٩٥ على المبدإ القائل بأن القانون الذى يقره البرلمان لا يمكن أن يلغيه إلا البرلمان ، ثم اتفق فى عام ١٢٩٧ على ألا تجبى الضرائب إلا بعد موافقة البرلمان ؛ هذه هى المبادئ البسيطة التى قامت عليها أكثر الحكومات دمقراطية فى تاريخ العالم .

ولم يحضر رجال هذا البرلمان الواسع إلا وهم كارهون . وكانوا يجلسون فيه منفصلين عن سائر الطبقات ، ويأبون أن يقترعوا على الأموال المطلوبة إلا فى جمعياتهم الإقليمية ، وظلت المحاكم الكنسية تنظر فى جميع القضايا التى للقانون الكنسى شأن فيها ، وفى معظم القضايا التى يكون أحد رجال الدين طرفاً فيها . وكان فى الاستطاعة محاكمة رجال الدين إذا ارتكبوا جناية كبرى أمام السلطات الزمنية ؛ أما من يحكم عليهم فى جرائم أقل من جريمة الخيانة العظمى فكانوا حسب « ميزات رجال الدين » يسلمون إلى محكمة كنسية من حقها وحدها أن تعاقبهم على جرائمهم . يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من القضاة كانت من رجال الكنيسة ، لأن دراسة القانون كانت مقصورة فى الغالب على رجال الدين . ثم أصبحت المحاكم المدنية فى عهد إدورد الأول أكثر مدنية مما كانت قبله ، ولما امتنع رجال الدين عن أن ينضموا إلى غيرهم من الطبقات فى الاقتراع على الأموال المطلوبة ، قال إدورد الأول إن على الذين يتمتعون بحماية الدولة أن يتحملوا نصيبهم من أعبائها ، ثم أمر محاكمه ألا تنظر فى القضايا التى يكون المدعى فيها أحد رجال الكنيسة ، وأن تنظر فى كل قضية يكون أحد رجال الكنيسة هو المدعى عليه فيها[٤٦] . وزاد مجلس إدورد المنعقد فى سنة ١٢٧٩ على هذا بأن حرم بمقتضى قانون مورتمين Mortmain أن تمنح الهيئات الكنيسية أرضاً بغير موافقة الملك .

ونما القانون الإنجليزى نمواً سريعاً فى أيام وليم الأول ، وهنرى الثانى ، وجون ، وإدورد الأول على الرغم من تعدد جهات الاختصاص على النحو

السالف الذكر . وكان هذا القانون إقطاعياً محضاً شديد الوطأة على رقيق الأرض ، فقد كانت الجرائم التى يرتكبها الأحرار على أرقاء الأرض يعاقب عليها بالغرامة ؛ وكان القانون يجيز للنساء أن يمتلكن المال ويورثنه ويتصرفن فيه بالوصية ، كما أجاز لهن أن يتعاقدن ، ويقاضين غيرهن ويُقَاضين ، وجعل من حق المرأة أن ترث ثلث أملاك زوجها العقارية بعد وفاته ، ولكن جميع المنقولات التى جاءت بها إلى البيت وقت زواجها ، أو حصلت عليها فى أثناء الزواج ، تصبح ملكا للزوج(٤٧) . وكانت الأرض كلها من الناحية القانونية ملكا للملك ينالها أصحابها منه إقطاعاً . وكانت ضيعة السيد الإقطاعى كلها فى العادة يوصى بها لابنه الأكبر ، ولم يكن يقصد بهذا أن تبقى الأملاك غير مجزأة ، بل كان يقصد به فوق ذلك حماية السيد الإقطاعى الأعلى من تجزئة التبعة الإقطاعية فى جباية المكوس وأداء التزامات الحرب . أما الفلاحون الأحرار فلم يمكن ثمة قانون يلزمهم بأن يورثوا أملاكهم أكبر أبنائهم .

وظل قانون التعاقد غير ناضج فى هذا التشريع الإقطاعى . وكانت محكمة للمقاييس والموازين تحدد مستوى الموازين ، والمقاييس ، والنقود ؛ وتفرض رقابة الدولة على استعمالها . وبدأ التشريع التجارى المستنير فى إنجلترا « بقانون التجار » (١٢٨٣) و « عهد التجار » Carta Mercatoria (١٢٠٣) – وهما عملان جليلان آخران من الأعمال التى تمت فى عهد إدورد الأول .

وتحسنت طرق الإجراءات القانونية تحسناً بطيئاً ، واتبعت لتنفيذ القوانين عدة وسائل ، فجعل لكل حى « رقيب » ولكل حاضرة إقليم شرطى (كنستبل Constable) ولكل إقليم حاكم . وكان القانون يفرض على جميع الرجال أن يرفعوا عقيرتهم «بصرخة وزعقة» إذا شهدوا اعتداء على القانون، وأن يشتركوا فى مطاردة المعتدى ، وأجيزت الكفالة . ومن فضائل القانون الإنجليزى أن التعذيب لم يكن يلجأ إليه فى مناقشة المتهمين أو الشهود . من ذلك أنه لما أغرى

فليب الرابع ملك فرنسا إدورد الثانى بأن يقبض على فرسان المعبد الإنجليز ، ولم يجد هذا الملك دليلا يأخذهم به ، كتب البابا كلمنت الخامس ، بتحريض فليب بلا ريب ، إلى إدورد يقول : « ترامى إلينا أنك تحرم التعذيب لأنه مخالف لقانون بلدك ، ولكن ما من قانون للدولة يمكن أن يسمو على القانون الكنسى ، قانوننا . ولهذا آمرك أن تعذب هؤلاء الرجال »[٤٨] . وخضع إدورد لأمر البابا ، ولكن التعذيب لم يلجأ إليه مرة أخرى فى الإجراءات القانونية الإنجليزية إلا فى عهد ميرى « اللعينة » (١٥٥٣—١٥٥٨) .

وأدخل النورمان إلى إنجلترا نظام الفرنجة القديم ، نظام التحقيق القضائى أمام المحلفين ، وهم طائفة من المواطنين المحليين ، وذلك فى شئون الأقاليم المالية والقانونية . وارتقت محكمة كلارندن (حوالى عام ١١٦٦) بنظام « المحلفين » بأن أجازت للمتقاضين ألا يقرروا صدقهم أو كذبهم عن طريق القتال ، بل أمام لجنة محكمين أى محلفين مؤلفة من اثنى عشر فارساً يختارهم من بين المواطنين فى الإقليم أمام المحكمة نفسها أربعة من الفرسان يعينهم حاكم الإقليم . وكانت هذه هى الدورة القضائية الكبرى ، أما فى الدورة الصغرى التى كانت تعقد للنظر فى القضايا العادية فكان حاكم الإقليم نفسه يختار اثنى عشر من أحرار الإقليم المجاور للمحكمة . وكان الناس وقتئذ يعارضون فى نظام المحلفين كما يعارضونه الآن ، ولم يكن يدور بخلدهم قط أن هذا النظام سيصبح أساساً من أسس الدمقراطية . ولم ينته القرن الثالث عشر حتى كان حكم المحلفين قد حل فى إنجلترا كلها تقريباً محل أنظمة التحقيق القديمة التى كانت تجرى حسب الشريعة الهمجية .

٥ — البلاد الإنجليزية

كانت تسعة أعشار إنجلترا فى عام ١٣٠٠ ريفا ، وكان بها مائة بلدة تعد فى نظر المدائن التى خلفتها فى هذه الأيام قرى صغيرة ، وكان بها مدينة واحدة هى لندن

تزهو على غيرها بسكانها البالغين أربعين ألفاً[٤٩] – أى أربعة أضعاف أية مدينة أخرى فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت أقل كثيراً فى ثروتها وجمالها من باريس ، أو بروج ، أو البندقية ، أو ميلان ، دع عنك القسطنطينية أو پالرم ، أو رومة . وكانت بيوتها من الخشب ، تعلو طبقتين أو ثلاث طبقات ، ذات سقف هرمية ، وكثيراً ما كانت الطبقات العليا تبرز عن الطبقات التى تحتها . وكانت قوانين المدن تحرم إلقاء فضلات المطابخ ، أو حجر النوم ، أو الحمامات من النوافذ ، ولكن سكان الطبقات العليا كثيراً ما كانوا يلجأون إلى هذه الوسيلة الهينة للتخلص من فضلاتهم . وكانت مياه المنازل القذرة تتخذ طريقها إلى مياه المطر التى تجرى عند حافة الإفريز ، وكان إلقاء البراز فى هذه المياه الجارية محرماً أما البول فكان إلقاؤه فيه مسموحا به[٥٠] . وكانت المجالس البلدية تبذل جهدها لتحسين وسائل الصحة العامة – فكانت تأمر أهل المدن بتنظيف الشوارع أمام بيوتهم ، وتفرض الغرامات على من يهملون منهم أمرها هذا ، وتستأجر عمالا يجمعون الفضلات والأقذار ويحملونها فى عربات إلى قوارب الفضلات فى نهر التاميز . وكان كثيرون من السكان يربون الخيل ، والماشية ، والخنازير ، والدجاج ، ولكن هذا العمل لم يكن كثير الضرر ، لأن الأماكن الخالية كانت كثيرة ، ولأن كل بيت تقريباً كانت له حديقة . وكانت تقوم فى أماكن متفرقة أبنية من الحجارة ، مثل كنيسة المعبد Temple Church ، ودير وستمنستر ، وبرج لندن الذى بناه وليم الفاتح ليحمى عاصمته ويضع فيه المسجونين الممتازين . وكان أهل لندن من ذلك الوقت البعيد يفخرون بمدينتهم ، وسرعان ما قال عنهم فرواسار Froissart « إنهم أعظم خطراً من جميع سكان بقية إنجلترا ، لأنهم أقوى أهل البلاد مالا ورجالا » ، ووصفهم الراهب تومس الولسنجهامى Thomas of Walsingham بأنهم « يكادون يكونون أكثر الناس كبرياء ، وغطرسة ، وشرها ، وأقلهم استمساكاً بالعادات القديمة وإيماناً بالله »[٥١] .

وأنتج امتزاج سلالات النورمان ، والأنجليسكسون ، والدنمرقيين ، والكلت ، ولغاتهم ، وأساليبهم فى الحياة ، أنتج هذا الامتزاج الأمة الإنجليزية ، واللغة الإنجليزية ، والأخلاق الإنجليزية . ولما انفصلت نورمندية عن إنجلترا ، نسيت أسر النورمان المقيمة فى إنجلترا بلاد نورمندية ، وتعلمت حب بلادها الجديدة . وظلت صفات الكلت الصوفية الشعرية باقية ، وبخاصة عند الطبقات الوسطى ، ولكنها قد خفف منها بأس النورمان ودنيويتهم ، وظل فى مقدور البريطانى الناشئ من هذا المزيج ، وسط نزاع الأمم ، والطبقات ، وكوارث القحط والوباء ، ظل فى مقدور البريطانى أن يجعل من « إنجلترا المرحة » ، كما يسميها هنرى الهنتنجدونى Henry of Huntingdon (١٠٨٤ — ١١٥٥) أمة جمة النشاط ، والفكاهة النابية ، والألعاب الصاخبة ، والرفقة الطيبة ، والمحبة للرقص والأغانى الشعرية ، والجعة . ومن هذه الأصلاب والأجيال القوية نشأت شهوانية حجاج تشوسر Chaucer العارمة ، والعبارات الطنانة المزوّقة التى كان ينطق بها رجال العصر الإلزبيثى المتفاخرون .

الفصل التاسع

إنجلترا - اسكتلندة - ويلز

(١٠٦٦ - ١٣١٨)

جلس هنرى الثانى على عرش إنجلترا فى عام ١١٥٤ وتولى البابوية فى العام نفسه إنجليزى يدعى نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear وسمى باسم هدريان الرابع : وبعد عام من ذلك الوقت بعث هنرى جون السلزبرى إلى رومة برسالة تنم عن كثير من الدهاء قال فيها إن أيرلندة فى حال يرثى لها من الفوضى السياسية ، والاضمحلال الأدبى ، والانحطاط الخلقى ، وعدم الاستقلال الدينى والانحلال : وسأل البابا هل يسمح له بالاستيلاء على هذه الجزيرة التى تسودها النزعة الفردية ، ويعيد إليها النظام الاجتماعى ، ويرغمها على طاعة البابا ؟ وأجاب البابا هنرى إلى طلبه ، إذا جاز لنا أن نصدق جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis وأصدر مرسوماً بابويا منح فيه هنرى أيرلندة ، مشترطاً عليه أن يعيد إليها الحكومة النظامية ، وأن يجعل رجال الدين الأيرلنديين أكثر تعاوناً مع رومة ، وأن يفرض بنس واحد ، أى ما يعادل الآن ($\frac{٨٣}{١٠٠}$ من الدولار الأمريكى) فى كل عام على كل بيت فى أيرلندة يؤدى إلى كرسى القديس بطرس[٥٢] . ولم تكن مشاغل هنرى وقتئذ تمكنه من أن يفيد من حالة الفوضى السائدة فى أيرلندة ، ولكنه ظل متحفزاً للإفادة منها .

وحدث فى عام ١١٦٦ أن هزم تيرنان أورورك Tiernan O'Rourke ، ملك بوفنى Bnefni درموت ماك مرو Dermot Mac Murrough ملك لينستر فى حرب قامت بين الملكين لأن ثانيهما أغوى زوجة الأول . ولما طرد رعايا درموت مليكهم من البلاد فرَّ هو وابنته الحسناء إيفا Eva إلى إنجلترا وفرنسا ، وحصل على خطاب من هنرى الثانى يؤكد فيه عطفه على فرد من رعاياه

يساعد درموت على استرداد عرش لينستر . وكانت نتيجة هذا التأكيد أن تلقى درموت من رتشرد فتز جلبرت Richdrd Fitz Gilbert إيرل بمبروك بويلز الملقب « بالقوس السمحة » وعداً بالمساعدة العسكرية إذا تعهد له بأن يزوجه بإيفا وأن يخلفه على عرش مملكة درموت . وزحف رتشرد فى عام ١١٦٩ على رأس قوة صغيرة من أهل ويلز إلى أيرلندة ، وأعاد درموت إلى عرشه بمساعدة قساوسة لينستر ، ولما توفى درموت (١١٧١) ورث مملكته . فما كان من رورى أوكنور Rory O,Connor ملك أيرلندة الأعلى وقتئذ إلا أن سار على رأس جيش لقتال الغزاة من أهل ويلز ، وحاصرهم فى دبلن وسد عليهم جميع المسالك . وهجم المحاصَرون هجمة صادقة على الأيرلنديين وفكوا الحصار ، وفرَّ الإيرلنديون السيئو التدريب الناقصو العتاد . واستدعى هنرى الثانى رتشرد فعبر البحر إلى ويلز ، وقابل الملك ، ووافق على أن يسلمه دبلن وغيرها من الثغور الأيرلندية ، وأن يتولى ما بقى من لينستر إقطاعية من التاج البريطانى . ونزل هنرى إلى البر قرب ووترفورد Waterford (١١٧١) على رأس قوة تبلغ أربعة آلاف رجل ، وتلقى معونة رجال الدين الأيرلنديين ، وقدمت له أيرلندة كلها عدا كونوت Connought والستر Ulster فروض الولاء ، وتبدل فتح ويلز لأيرلندة فتحاً نورمانيا — إنجليزيا دون إراقة دماء . وعقد المطارنة الأيرلنديون مجلسا دينيا أعلنوا فيه خضوعهم للبابا خضوعاً تاماً ، وقرروا أن تكون شعائر الكنيسة الأيرلندية من ذلك الحين متفقة مع شعائر كنيستى إنجلترا وروما . وسمح للكثرة الغالبة من ملوك أيرلندة أن يحتفظوا بعروشهم ، على شريطة أن يعلنوا ولاءهم الإقطاعى لملك إنجلترا ، وأن يؤدوا إليه جزية سنوية .

ونال هنرى بغيته بمهارة فائقة واقتصاد فى المال والأرواح ، ولكنه أخطأ إذ ظن أن القوة التى تركها وراءه تستطيع المحافظة على السلم والنظام . يضاف إلى هذا أن عماله أخذوا يقتتلون لاقتسام الغنائم ، كما شرع أعوانهم وجنودهم ينهبون

البلاد دون أن تفرض عليهم إلا أقل رقابة ، وسخر الفاتحون جهودهم لتحويل أهل أيرلنده إلى أرقاء أرض . وعمد الأيرلنديون إلى حرب العصابات يقاومون بها الفاتحين ، وكانت نتيجة هذا أن هوت البلاد فى وهدة الفوضى والدمار ، وظلت كذلك قرناً من الزمان ، حتى عرض بعض الزعماء الأيرلنديين بلادهم على اسكتلندة فى عام ١٣١٥ . وكان ربرت بروس Robert Bruce الاسكتلندى قد هزم الإنجليز توا عند بنكبرن Bannockbnrn قبل ذلك . ونزل إدورد أخو ربرت فى أيرلندة ومعه ستة آلاف رجل ؛ وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر قراراً بحرمان كل من يساعد الأسكتلنديين ، ولكن لأيرلنديين جميعهم تقريباً ثاروا إجابة لنداء إدورد ، وتوجوه ملكاً على البلاد فى عام ١٣١٦ . ولكنه هزم وقتل بعد عامين من ذلك الوقت ، وأخفقت الثورة وسط مظاهر الفقر واليأس .

ويقول رانلف هجدن Ranulf Higden ، وهو رجل بريطانى عاش فى القرن الرابع عشر ، إن الاسكتلنديين شعب « مرح » ، رجاله أقوياء ، غلاظ إلى حد كبير ، ولكنهم إذا امتزجوا بالإنجليز صلحت حالهم كثيراً . وهم قساة على أعدائهم ، يكرهون القيود أكثر من كراهيتهم كل شىء آخر ، ويرون أن العار كل العار أن يموت منهم رجل فى فراشه ، والفخر كل الفخر أن يموت فى ميدان القتال(٥٣) .

وبقيت أيرلندة أيرلندية ولكنها فقدت حريتها ، وأصبحت اسكتلندة بريطانية ولكنها بقيت حرة ؛ وتضاعف عدد الإنجليز ، والسكسون ، والنورمان فى الأراضى المنخفضة ، وأعادوا تنظيم الحياة الزراعية حسب الأساليب الإقطاعية . وكان ملكولم الثالث Malcolm III (١٠٥٨ — ١٠٩٣) رجلا محارباً غزا إنجلترا عدة مرات ، ولكن زوجته الملكة مرجريت كانت أميرة أنجليسكسونية نشرت اللغة الإنجليزية فى البلاط الاسكتلندى ، وجاءت إلى البلاد برجال الدين الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية ، وربت أبناءها على أسس التربية الإنجليزية واتخذ داڤد الأول David I' ، (١١٢٦ — ١١٥٣) آخر هؤلاء الأبناء وأقواهم

الكنيسة أداته المختارة لحكم البلاد ، وأنشأ فى كلسو Kelso ، ودراى برج Dryburgh ، وملروز Melrose ، وهولى رود Holyrood أديرة يتكلم رهبانها اللغة الإنجليزية ، وجبى العشور (للمرة الأولى فى اسكتلندة) لمعونة الكنيسة ، وأغدق المال على الأساقفة ورؤساء الأديرة إغداقا جعل الناس يحسبونه من القديسين وإن لم يكن منهم ؛ وأضحت اسكتلندة فى عهد داڤد الأول كلها عدا مرتفعاتها ولاية إنجليزية(٥٤) .

لكنها لم تكن أقل استقلالا مما كانت قبل ، فقد استحال المهاجرون الإنجليز اسكتلنديين محبين لوطنهم الجديد ، وخرج من بينهم آل استيورت Stuart وآل بروس Bruce . وغزا داڤد الأول نورثمبرلند وافتتحها ، ثم فقدها ملكولم الرابع (١١٥٣ – ١١٦٥) ؛ وحاول وليم الأسد William the Lion (١١٦٥ – ١٢١٤) أن يستردها ، فأسره هنرى الثانى ولم يطلقه إلا بعد أن تعهد بإخضاع التاج الاسكتلندى لملك إنجلترا (١١٧٤) . وبعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت استطاع أن يتحلل من هذا العهد بأن ساعد رتشرد الأول بالمال فى الحرب الصليبية الثالثة ، ولكن الملوك الإنجليز ظلوا يطالبون بسيادتهم الإقطاعية على اسكتلندة . واسترد اسكندر الثالث (١٢٤٩ – ١٢٨٦) جزائر هبريدة Hebrides من النرويج ، واحتفظ بصلات الود والصداقة مع إنجلترا ، ووهب اسكتلندة عصراً ذهبيا يسوده السلم والرخاء .

وتنازع ربرت بروس ، وجون بليول John Balliol ولدا داڤد الأول على العرش بعد وفاة اسكندر . وانتهز إدورد الأول ملك إنجلترا هذه الفرصة وتدخل فى النزاع وأصبح بليول ملكا على اسكتلندة بفضل تأييده له ، واعترف بليول بسيادة إنجلترا العليا على بلاده (١٢٩٢) . فلما أمر إدورد بليول أن يجهز جيشاً ليقاتل مع إنجلترا فى فرنسا ، تمرد النبلاء والأساقفة الاسكتلنديون ، وأمروا بليول أن يعقد حلفاً مع فرنسا على إنجلترا (١٢٩٥) ، وهزم إدورد الاسكتلنديين عند

ودنبار (١٢٩٦) ، وتقبل خضوع أشراف البلاد ، وخلع بليول عن العرش ، وعين ثلاثة من الإنجليز ليحكموا اسكتلندة بالنيابة عنه ، وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا .

وكان كثيرون من النبلاء الاسكتلنديين يملكون أرضاً فى إنجلترا ، فكان عليهم لهذا السبب واجب الطاعة لمليكها . ولكن قدماء الغاليين الاسكتلنديين ساءهم هذا الاستسلام أشد الاستياء ، فأعدّ واحد منهم يدعى وليم ولاس William Wallace جيشاً من عامة الاسكتلنديين » ، وبدد شمل الحامية الإنجليزية ، وظل عاما كاملا يحكم إنجلترا نائبا عن بليول . ثم عاد إدورد وهزم ولاس فى فولكيرك Falkirk (١٢٩٨) ، وقبض عليه فى ١٣٠٥ ، وأمر به فبقرت بطنه وقطعت أطرافه عملا بقانون الخيانة الإنجليزى .

وأرغم مدافع آخر عن استقلال أيرلندة على الخروج إلى الميدان بعد عام من ذلك الوقت . ذلك أن ربرت بروس حفيد بروس الذى كان يطالب بالعرش فى عام ١٢٨٦ تنازع مع جون كومين John Comn ، من كبار ممثلى إدورد الأول فى اسكتلندة ، وقتله . ولم يكن أمام بروس بعد هذا العمل إلا العصيان ، فتوّج نفسه ملكا على اسكتلندة ، وإن لم يؤيده إلا نفر قليل من أعيان البلاد ، وإن كان البابا قد حرمه جزاء له على جريمته . وزحف إدورد مرة أخرى صوب الشمال ولكنه مات فى الطريق (١٣٠٧) . وكان عجز إدورد الثانى نعمة على بروس وبركة ، فقد انضوى رجال اسكتلندة ورجال الدين فيها تحت لواء طريد القانون ، واستولت جيوشه يقودها أخوه إدورد وسير جيمس دجلاس Sri James Douglas ببسالة عظيمة على إدنبرة ، وغزت نورثمبرلند ، وانتزعت درهام من الاسكتلنديين . وزحف إدورد الثانى فى عام ١٣٠٤ على اسكتلندة بأكبر جيش شهدته البلاد فى تاريخها الماضى كله ، والتقى بالاسكتلنديين عند بنكبرن Bannockburn . وكان بروس قد أمر رجاله بأن يحفروا أمام موقعه

حفراً يخفونها عن الأعين ، فلما هجم عليه الإنجليز سقط الكثيرون منهم فى هذه الحفر ، وهلك الجيش الإنجليزى حتى لم يكد يبقى منه أحد . واشتبك الأوصياء على إدورد الثالث فى حرب مع فرنسا فى عام ١٣٢٨ ، ووقعوا معاهدة نورثمبتون Northampton ، وتحررت اسكتلندة مرة أخرى .

وقام فى هذه الأثناء نزاع آخر فى ويلز أسفر عن نتيجة تختلف عن النتيجة السابقة . ذلك أن وليم الأول طالب بالسيادة عليها بوصف كونها جزءاً من مملكة هرولد Harold المنهزم . ولم يتسع له الوقت لضمها إلى فتوحه ، ولكنه أقام على حدودها الشرقية ثلاث مقاطعات على رأس كل منها إيرل Earl ، وشجع رؤساء هذه المقاطعات على أن يوسعوا حدودها فى ويلز . وكان القراصنة النورمان يجتاحون وقتئذ ويلز الجنوبية ، وهم الذين تركوا فتز Fitz (أى ابن) فى بعض أسماء أهل تلك البلاد . ثم أخضع كدرجان آب بلدين Cadwgan ap Blepyn أولئك النورمان فى عام ١٠٩٤ ؛ وهزم أهل ويلزا الإنجليز عند كروين Corwen فى عام ١١٦٥ ؛ وشغل هنرى الثانى بالنزاع مع بكت ، فاعترف باستقلال ويلز الجنوبية تحت حكم مليكها المستنير رايس آپ جرفيد Rhys ap Graffyd (١١٧١) ، وبسط لويلين الأكبر Llywelyn the Great حكمه على جميع البلاد بفضل مقدرته العظيمة فى الحرب والسياسة ؛ ثم تنازع أبناؤه فيما بينهم وأشاعوا الاضطراب فى أنحاء البلاد ، ولكن حفيده لويلين آب جرفيد (المتوفى عام ١٢٨٢) رد إلى البلاد وحدتها ، وعقد الصلح مع هنرى الثالث ، وأنشأ لنفسه لقب أمير ويلز . وعقد إدورد الأول عزمه على أن يضم ويلز واسكتلندة إلى إنجلترا ، فغزا ويلز بجيش ضخم وعمارة بحرية قوية (١٢٨٢) ؛ وقُتِل لويلين حين التقى مصادفة بقوة صغيرة على الحدود ، وقبض إدورد على أخيه داڤد ، وعلق رأسه بعد أن فصل عن جسمه هو ورأس لويلين من برج لندن ، وتركهما حتى نحلت شعرهما الشمس والرياح والأمطار . وأضحت ويلز جزءاً من إنجلترا (١٢٨٤) ،

وخلع إدورد فى عام ١٣٠١ لقب أمير ويلز على ولى عهد إنجلترا .

واحتفظ أهل ويلز فى أثناء هذا الارتفاع والهبوط بلغتهم وعاداتهم ، وظلوا يفلحون أرضهم الصلبة بشجاعة وجلد ، ويسلون أنفسهم فى الليل والنهار بالأقاصيص ، والشعر ، والموسيقى ، والغناء . وصاغ شعراؤهم فى ذلك الوقت قصص مابينوجيون Mabinogion ، ومزجوا الأدب مزجاً فذاً مقطوع النظير بالحنان الصوفى ذى النغم الجميل . وكان الشعراء والمغنون الجائلون يجتمعون فى كل عام فى مجلس وطنى نستطيع أن نرجع بتاريخه إلى عام ١١٧٦ ، تعقد فيه المباريات فى الخطابة ، والشعر ، والغناء ، والعزف على الآلات الموسيقية ؛ وكان أهل ويلز مقاتلين بواسل ، ولكنهم لم يكونوا يصبرون على الحرب الطويلة الأمد ، وكانوا يتوقون إلى العودة إلى أوطانهم يحمون بأنفسهم نساءهم وأطفالهم وبيوتهم ، وكان من أمثالهم مثل يتمنون فيه أن يكون « كل شعاع من أشعة الشمس خنجراً يطعن صدور المحبين للحرب »(٥٥).

الفصل العاشر

بلاد نهر الرين (١٠٦٦ - ١٣١٥)

كانت الأقاليم المحتشدة حول حوض الرين الأدنى ومصابه الكثيرة من أغنى أقاليم العالم فى العصور الوسطى . فقد كان فى جنوب الرين إقليم فلاندرز الممتد من كاليه Calais مخترقاً بلچيكا الحالية إلى نهر الشلد Sheldt . وكان هذا الإقليم من الوجهة الرسمية إقطاعية من ملك فرنسا ، ولكنه كان من الوجهة الفعلية تحت حكم أسرة مالكة من النبلاء المستنيرين لا يحد من سلطتهم إلا ما كان للمدن من استقلال ذاتى تفخر به . وكان الأهلون القريبون من الرين ينتمون إلى العنصر الفلمنكى ، وأصلهم من عنصر ألمانى يسكن البلاد المنخفضة ويتكلمون لهجة ألمانية ؛ أما من كانوا يقطنون فى غرب نهر ليس Lys فكانوا من الولون Walloons — وهم خليط من الألمان والفرنسيين امتزجوا بأصل كلتى — ويتكلمون لهجة فرنسية . وأثرت غنث وأودنارد Audenaarde ، وكورتربه ، وإيبرس ، وكاسل Kassel فى الإقليم الشمالى الشرقى الفلمنكى ؛ وبروچ ، وليل ، ودويه فى الإقليم الجنوبى الغربى الولونى ، أثرت هذه البلدان من تجارتها وصناعتها وإن كانتا قد سببتا لها الاضطراب . وكانت كثافة السكان فى هذه المدن أكثر منها فى سائر المدن الأوربية القائمة فى شمال جبال الألب ، وكانت هذه المدن تسيطر على حكامها الأشراف فى عام ١٣٠٠ ؛ فقد كان قضاة المقاطعات الكبرى يؤلفون من بينهم محكمة عليا للبلاد ويتفاوضون مستقلين مع المدن والحكومات الأجنبية(٥٦) . وكان أولئك الحكام الأشراف فى العادة يتعاونون مع المدن ، ويشجعون التجارة والصناعة ، وكانت لهم عملة مستقرة ،

ووضعوا منذ عام ١١٠٠ – أى قبل إنجلترا بمائتى عام – نظاماً عاماً للمقاييس والموازين يعمل به فى جميع المدن .

لكن حرب الطبقات قضت فى آخر الأمر على حرية المدن وحرية حكامها الأشراف . والسبب فى ذلك أن صعاليك المدن زاد عديدهم ، واشتد غضبهم وسلطانهم ، وأن الحكام الأشراف انضموا إليهم ليناهضوا بهم الطبقة الوسطى الغنية المغترة بنفسها ؛ فلجأ التجار إلى فليب أغسطس يطلبون إليه المعونة ، فوعدهم بها يرجو بذلك أن يخضع فلاندرز إلى التاج الفرنسى خضوعاً أتم من ذى قبل . وكانت إنجلترا تحرص على أن تبقى أهم سوق تصرف فيها صوفها بعيدة عن سيطرة ملك فرنسا ، فعقدت حلفاً مع حكام فلاندرز ، مع هينولت Hainault دوق برابانت Brabant وأتو الرابع Otto IV إمبراطور ألمانيا . وهزم فليب جيوش هذا الحلف عند بوفين (١٢١٤) ، وأخضع حكام فلاندرز ، وحمى النظام الألجركى للتجار . ولم ينقطع نزاع السلطات والطبقات بعد هذه الهزيمة ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٧ تحالف الكونت جى ده دمبير Guy de Dampierre مرة أخرى مع فلاندرز وإنجلترا ؛ فما كان من فليب الجميل إلا أن غزا فلاندرز ، وزج جى فى السجن ، وأرغمه على تسليم البلاد إلى فرنسا . فلما أن زحف الجيش الفرنسى لاحتلال بروج ، ثار العامة عليه ، وهزموا الجنود ، وذبحوا أغنياء التجار ، واستولوا على المدينة . وبعث فليب بجيش قوى ليغسل هذه الإهانة التى لحقته ؛ وألف عمال المدن من أنفسهم جيشاً مرتجلا عاجلا هزموا به الفرسان والجنود المرتزقة التى بعثت بها فرنسا فى معركة كورتريه (١٣٠٢) ؛ وأخرج جى ده دمبير الشيخ من سجنه وأعيد إلى منصبه ، واستمتع الحلف العجيب بين الحكام الأشراف والصعاليك الثوار بالنصر عشر سنين .

وظلت البلاد المعروفة لنا الآن باسم هولندة جزءاً من مملكة الفرنجة من القرن الثالث حتى القرن التاسع ؛ ثم أصبحت فى عام ٨٤٣ هى الطرف الشمالى

لدولة لورين الحاجزة(*) التى أنشأتها معاهدة فردون Verdun . وقسمت تلك البلاد فى القرنين التاسع والعاشر إقطاعيات كى تستطيع صد غارات الشماليين. وقطع الألمان الأشجار من الإقليم الكثيف الغابات الواقع فى شمال نهر الرين ، واستقروا فيه ، وأطلقوا عليه اسم هولندة ، أى أرض الغابات . وكان معظم أهله أرقاء أرض ، منهمكين فى كدحهم لانتزاع القوت من أرضين لابد لهم أن يقيموا الحواجز حولها لوقايتها من ماء البحر أو لتجفيفها بعد أن تطغى المياه عليها . غير أنها كانت تضم أيضاً مدناً ليست كالمدن الفلمنكية ثروة أو اضطراباً ، بل تعتمد اعتماداً سلمياً على الصناعة المستقرة والتجارة المنتظمة . وكانت دوردرخت Dordrecht أكثر هذه المدن رخاء ؛ كما كانت أوترخت Utrecht مركزاً للعلوم ، وهارلم مقر كونت هولندة ؛ وأضحت دلفت Delft عاصمة البلاد إلى حين ، ثم انتقلت العاصمة حوالى عام ١٢٥٠ إلى لاهاى The Hague(**) . وكان أول ظهور أمستردام فى عام ١٢٠٤ حين شاد أحد الأعيان الإقطاعيين قصراً حصينا عند مصب نهر أمستل Amstel ؛ واجتذب هذا الموقع الأمين على الزيدرزى Zuider Zee والقنوات الكثيرة التى تخترقه فى كل مكان — اجتذب هذا الموقع التجارة ، ثم جعلت المدينة فى عام ١٢٩٧ ثغراً حراً تفرغ فيه المتاجر ويعاد شحنها دون أن تؤدى ضرائب جمركية ؛ وأضحى لهولندة الصغيرة من ذلك الحين شأن عظيم فى شئون العالم الاقتصادية ، وفيها غذت التجارة الثقافة كما يحدث فى غيرها من البلدان ، فنحن نسمع فى القرن الثالث عشر عن شاعر هولنـــدى يدعى مارلانت Maerlant ، يهجو حياة رجال الدين المترفين هجاء لاذعاً . وبدأ الفن

(*) الدولة الحاجزة هى الدولة المحايدة القائمة بين دولتين ليست علاقتهما فى العادة ودية أو قد تصير غير ودية buffer state لمنع الصدام بينهما . (المترجم)

(**) وكان الكونت قد اتخذ هذا المكان ليلتقى فيه برفاق الصيد ، وسميت لذلك جرافن هاج s'Graven Haag أى مأوى الكونت وتسمى الآن دن هاج den Haag

الهولندى حياته الفذة العجيبة فى الأديرة ، وكان يشمل النحت ، وصناعة الخزف ، والتصوير ، وتزيين الكتب .

وكانت دوقية برابانت تقوم إلى جنوب هولندة ، وكانت تشمل وقتئذ مدائن أنفرس Antwerp ، وبركسل ولوفن Louvain . أما لييج فكان يحكمها أساقفتها حكماً مستقلا ، وكانوا يتركون لها قسطا كبيراً من الحكم الذاتى ؛ وكان إلى جنوب برابانت مقاطعات هينولت ، ونامور Namur ، ولمبرج Limburg ، ولكسمبرج ؛ ثم دوقية لورين ومدائنها ترير Trier ، ونانسى Nancy ، ومتز ؛ ثم عدة إمارات أخرى خاضعة خضوعاً اسميا لإمبراطور ألمانيا ، ولكنها كانت متروكة فى الأغلب الأعم لأشرافها الحكام . وكان لكل من هذه الأقاليم تاريخه الحافل بأحداث السياسة ، والحب ، والحرب ؛ فلنودعها ولننتقل إلى غيرها . وكان فى جنوبها وغربها إقليم برغندية التى تكون الآن الجزء الشرقى من وسط فرنسا ؛ وكانت حدودها تتبدل على الدوام تبدلا لا يشجعنا على تعيينها ، أما أحداثها السياسية فإنها كفيلة بأن تملأ مجلدات ضخمة عديمة الفائدة . وحسبنا أن نقول عنها إن رودلف الأول جعلها مملكة مستقلة فى عام ٨٨٨ ؛ وإن رودلف الثالث أوصى فى عام ١٠٣٢ بضمها إلى ألمانيا . ولكن جزءاً منها ضم إلى فرنسا فى هذا العام نفسه وأصبح دوقية تابعة لها . وكان أدواق برغندية ، كما كان ملوكها السابقون يحكمونها ، حكما يدل على الحكمة والذكاء ، وكانت الكثرة الغالبة منهم تحرص على السلم . ويقع أزهى عصورهم فى القرن الخامس عشر .

وكانت سويسرا فى العصور القديمة موطن عدد من القبائل المختلفة — الهلفيتى Helvetii ، والرئيتى Raeti ، والليپنتى Lepouti — وهم خليط من الأصول الكلتية ، والتيوتونية ، والإيطالية . واحتلت قبائل الألمانى Alemani الهضبة الشمالية وصبغتها بالصبغة الألمانية ؛ ثم قسمت البلاد بعد انهيار الدولة

الكارولنجية إلى إقطاعات خضعت للدولة الرومانية المقدسة . غير أن استعباد سكان الجبال من أشق الأعمال ، ولذلك فإن أهل سويسرا سرعان ما حرروا أنفسهم من الاسترقاق الإقطاعي وإن ظلوا يؤدون بعض الالتزامات الإقطاعية . وكان أهل القرى المجتمعون في جمعيات دمقراطية يختارون موظفيهم ، ويحكمون أنفسهم بمقتضى الشرائع الألمانية القديمة شرائع الألماني Alemanni والبرغنديين . وألف الفلاحون المجاورون لبحيرة لوسرن Lucerne « مقاطعات غابية » (Waldstälte) للدفاع المتبادل — وهذه المدن هي : أوري Uri ، وندولدن Nidewalden ، وشويز Schwyz . ومن هذه المدينة الأخيرة اشتق اسم دولة سويسرا . وكان الأهلون الأشداء سكان المدن التي نشأت عند ممرات الألب — جنيف ، وكنستانس ، وفريبورج ، وبرن ، وبازل — ينتخبون موظفيهم ، وينفذون قوانينهم الخاصة بهم ، ولم يكن سادتهم الإقطاعيون يعترضون على هذا الأسلوب من الحكم ، ما دامت الضرائب الإقطاعية الأساسية تؤدى لهم .

غير أن كونتات آل هبسبرج الذين كانوا يسيطرون على الأقاليم الشمالية منذ عام ١١٧٣ لم يكونوا يسيرون على هذه القاعدة ، ولما أن حاولوا فرض الالتزامات الإقطاعية بأشد ضروب القسوة ، أغضبوا أهل شويز ، فألفت الثلاث المقاطعات الغابية في عام ١٢٩١ « حلفاً أبدياً » وأقسم أهلها أن يتعاونوا على صد الغارات الأجنبية ، والقضاء على الفتن الداخلية ، وأن يفضوا كل منازعاتهم بالتحكيم ، وألا يعترفوا بقاض يُنصب عليهم إذا كان من غير أهل واديهم ، أو كان قد ابتاع منصبه . وسرعان ما انضمت مدائن لوسرن ، وزيورخ ، وكنستانس إلى هذه الجامعة . وسيّر أدواق هبسبرج في عام ١٣١٥ جيشين على سويسرا ليرغموا أهلها على أداء جميع الالتزامات الإقطاعية ، ولكن مشاة شويز وأوري المسلحين بالرماح ذات البلط في رؤوسها هزموا الفرسان النمساويين في

« مراثون سويسرا » ، هزيمة انسحبت على أثرها القوات النمساوية ، وجددت المقاطعات الثلاث يمين المساعدة المتبادلة (٩ ديسمبر سنة ١٣١٥) ، وأنشأت الاتحاد السويسرى . ولم تكن سويسرا قد أصبحت بعد دولة مستقلة ، فقد كان المواطنون الأحرار يعترفون ببعض الالتزامات الإقطاعية ، وبسيادة إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولكن السادة الإقطاعيين والأباطرة المقدسين عرفوا كيف يحترمون أسلحة المقاطعات والمدن السويسرية وحرياتها ، ومهد انتصار مورجارتن السبيل لقيام أكثر الدمقراطيات استقراراً وأعظمها تمسكاً بالعقل والاتزان فى التاريخ كله(*) .

(*) يبدو أنه ليس ثمة سند تاريخى دال على وجود وليم تل William Tell (٥٨)

الفصل الحادى عشر

فرنسا (١٠٦٠ – ١٣٢٨)

١ – فليب أغسطس

كانت فرنسا حينما جلس على عرشها فليب الثانى أغسطس (١١٨٠) دولة صغرى تكتنفها الصعاب ، ولا يكاد أحد يرجو لها عظمة فى مستقبل الأيام . فكانت إنجلترا تمتلك نورمندية ، وبريطانى ، وأنجو ، وتورين ، وأكتين – وهى أملاك تعادل مساحتها ثلاثة أضعاف الممتلكات التى يسيطر عليها ملك فرنسا سيطرة مباشرة . وكان الشطر الأكبر من برغندية فى حوزة ألمانيا ، وكانت مقاطعة فلاندرز المزدهرة إمارة مستقلة فى واقع الأمر ، شأنها فى هذا شأن مقاطعات ليون Lyons ، وساڤوى Savoy ، وشامبيرى Cnambery . وكانت هذه أيضاً حال پروڤانس – الجنوب الشرقى من فرنسا – الغنية بالخمر والزيت ، والفاكهة ، والشعراء ؛ ومدائن أرل Arles ، وأڤنيون ، وإيكس ، ومارسيليا : وكان إقليم الدوفنيه المحيط بڤينا قد ترك لألمانيا بوصف كونه جزءاً من برغندية ، وكان فى هذا الوقت إقليما مستقلا يحكمه دوفن dauphin اشتق لقبه من الدلفين dolphin (الدخّس) الذى كان شعار أسرته .

وكانت فرنسا الأصلية مقسمة إلى مقاطعات تحمل أسماء مختلفة – دوقيات ، وكنتيات ، وسنيوريات . وسنسكلتيات sensechalties ، وبيلياچات (مأموريات) Bailliages يحكمها بترتيب أهميتها أدواق ، وكونتون counts ، وسنيورون (سادة) وسنسكالون sensechal (رؤساء خدم الملوك) . ومأمورون bailiffs وكان هذا الحشد المفكك ، الذى كان يسمى فرنسيا Francia منذ القرن التاسع ، خاضعاً لملك فرنسا خضوعاً متفاوت الدرجات ،

مقيداً بقيود كثيرة . وكانت باريس عاصمة الملك فى عام ١١٨٠ مدينة ذات مبان من الخشب ، وشوارع كثيرة الأوحال ، وكان معنى لوتيتيا Lutetia اسمها الرومانى « بلدة الوحل » ، واشمأزت نفس فليب أغسطس من الروائح الكريهة المنبعثة من الشوارع المارة بجوار نهر السين ، فأمر أن ترصف شوارع باريس كلها بالحجارة الصلدة(٥٩) .

وكان فليب أول ملوك ثلاثة رفعوا فرنسا فى ذلك الوقت إلى مكان الزعامة الذهنية ، والأدبية ، والسياسية فى أوربا ، ولكن ملوكاً أقوياء قد سبقوه فى فرنسا ، منهم فليب الأول (١٠٦٠ — ١١٠٨) الذى خلد اسمه فى التاريخ بأنه طلق امرأته وهو فى سن الأربعين وأرغم فولك Fulk كونت أنجو بأن يسلم له الكونتة برتراد Bertrade . ووجد القس الذى يبارك هذا الزنى ويعدّه زواجاً ، ولكن إربان الثانى حين جاء إلى فرنسا داعياً إلى الحرب الصليبية الأولى حرم الملك . وأصر فليب على إثمه اثنتى عشرة سنة ، ثم طرد بعدها برتراد ورفع عنه الحرمان ، ولكنه لم يلبث أن تاب من توبته ، واسترد ملكته ، وسافرت معه إلى أنجو ، وعلمت زوجها أن يتصافيا ، ويخيل إلينا أنها متعت كل منهما بكل ما فيها من مفاتن(٦٠) .

وتضخم جسم فليب وهو فى سن الأربعين ، فترك شئون الدولة الخطيرة لابنه لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧) ، المعروف باسم لويس البدين . لكنه كان خليقاً بخير من هذا الاسم ، فقد ظل يحارب أربعاً وعشرين سنة ، يحارب البارونات الذين كانوا يسلبون المسافرين وانتصر عليهم آخر الأمر ؛ وقوى الملكية بأن نظم لها جيشاً قوياً ، وبذل كل ما فى وسعه لحماية الفلاحين ، والصناع ، والحكومات المحلية للمدن ، وأوتى من الحكمة ما جعله يتخذ سوجر Suger رئيس الدير وزيراً له وصديقاً . وكان سوجر رئيس دير القديس دنيس Denis (١٠٨١ — ١١٥٠) ريشليو القرن الثانى عشر ، دبر شئون فرنسا بحكمة

وعدالة وبعد نظر ؛ وشجع التجارة وأصلح أحوالها ، وخطط وشاد إحدى روائع المبانى القُوطية التى تعد أجمل مبانى ذلك الطراز وأقدمها عهداً ؛ وكتب وصفاً ممتعاً للسنين التى قضاها فى الوزارة ولأعماله فيها : وكان فى الواقع خير ما أورثه لويس البدين ولدَه الذى ظل سوجر يخدمه إلى وقت مماته .

وكان لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) هو الرجل الذى قالت عنه إليانور الأكتانية إنها تزوجت ملكا فلم تجده إلا راهباً . لقد كان يعمل جادا فى أداء واجباته الملكية ، ولكن فضائله قضت عليه ، فقد بدا لإليانور أن انهماكه فى شئون الحكم إهمال منه للواجبات الزوجية ، وأضاف بصبره على علاقتها بعشاقها الإهانة إلى هذا الإهمال ، فما كان منها إلا أن طلقته ، وأسلمت يدها ودوقية أكتين التى تمتلكها إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا . وخابت آمال لويس فى الحياة فوجه همه إلى الدين وإلى الصلاح ، وترك العمل لبناء فرنسا القوية إلى ولده .

وكان فليب الثانى أغسطس شبيها بفليب الآخر(*) الذى كان سميذعا من الطبقة الوسطى : كان رجلا ذكياً عملياً يلطف ذكاءه نبلُ عواطفه ، كان يناصر العلوم ولا يتذوقها ، يجمع بين الحذر والدهاء وبين الشجاعة والحزم ، حاد الطبع سريع المغفرة ، لايتردد فى أن يسلك أى سبيل تؤدى به إلى التملك ، ولكنه لم يكن شرها فى هذه الناحية ، وكان معتدلا فى تقواه يستطيع أن يكون سخياً للكنيسة دون أن يسمح لسلطان الدين أن يطغى على شئون السياسية ، ذا صبر ومثابرة نال بهما مالم يكن يستطيع أن يناله بالمغامرة الجريئة . وكان هذا الرجل عادياً وعظيما (أوجست August)(**) معا ، عنيداً فى لطف ، قاسياً فى حكمة ؛ وبهذا كان هو الرجل الذى تحتاجه بلاده فى وقت أحاطت بها إنجلترا أيام

(*) يقصد لوى فليب ملك فرنسا فى القرن التاسع عشر . (المترجم)

(**) هذا هو اللقب الذى منحه إياه راعى كنيسته ولم يشتهر به فى العصور الوسطى غير أن المؤرخين الفرنسيين قد لقبوه به .

هنرى الثانى وألمانيا فى عهد بربرسا ، ولعل الأقدار قد ساقته إلى فرنسا فى هذا الوقت العصيب ، ولولاه لكان من الجائز ألا يبقى لها وجود .

وارتاعت أوربا لزيجاته ؛ فقد ماتت إزبلا زوجه الأولى فى عام ١١٨٩ ، وبعد أربع سنين من وفاتها تزوج انجبورج Ingeborg الأميرة الدنمرقية . وكان زواجه هذا وذاك زواجاً سياسياً ، فيه من التملك أكثر مما فيه من الغرام . ولم ترق إنجبورج فى عين فليب ، فهجرها بعد يوم واحد ، ولم يمض على زواجه بها أكثر من عام حتى أقنع مجلساً من الأساقفة الفرنسيين أن يجيز له طلاقها ، ولكن البابا سلستين الثالث Celestine III أبى أن يوافق على هذا القرار . غير أن فليب تحدى البابا وتزوج فى عام ١١٦٩ بأنى الميرانية Agnes of Meran ؛ فحرمه سلستين ، ولكن فليب ظل على عناده وقال فى ساعة من ساعات حنانه : « خير لى أن أفقد نصف أملاكى من أن أفارق أنى » . وأمره إنوسنت الثالث أن يرجع إنجبورج ، فلما عصى فليب الأمر حرم البابا الصلب العنيد جميع الخدمات الدينية فى أملاك فليب . وثارت ثائرة فليب فخلع جميع الأساقفة الذين أطاعوا أمر الحرمان ، وقال فى حسرة : « ما أسعد صلاح الدين الذى ليس له من فوقه بابا » ، وهدد بأن يعتنق الإسلام(٦١) . وواصل حربه الدينية أربع سنين بدأ الشعب بعدها يتذمر خوفاً من عذاب النار ، فطرد فليب محبوبته أنى (١٢٠٢) ولكنه أبقى إنجبورج محبوسة فى إيتامب Etampes حتى عام ١٢١٣ حين ردها إلى عصمته .

وبين هذه الأفراح والاضطرابات فتح فليب نورمندية واسترد ها من إنجلترا (١٢٠٤) ، وضم فى السنتين التاليتين بريطانى ، وأنجو ، ومين ، وتورين ، وپواتو ، إلى أملاكه التى تحت سلطانه المباشر ، وأصبح له وقتئذ من القوة ما يستطيع به أن يسيطر على الأدواق ، والكونتة ، والسادة فى جميع أنحاء مملكته . وكان مأموروه وعماله يشرفون على الحكومات المحلية ، وصارت

مملكته قوة دُوَلية كبرى ، ولم تعد رقعة من الأرض ممتدة على ضفتى نهر السين . ولم يسكت چون ملك إنجلترا على ما أصابه من ضياع ملكه ، فأقنع أتو الرابع إمبراطور ألمانيا ، وكونتى بولونى وفلاندرز أن ينضما إليه فى الوقوف فى وجه هذا التوسع الفرنسى ، واتفقوا على أن يهاجم چون فرنسا من أكتين (وكانت لا تزال ملكا لإنجلترا) وأن يهاجمها حلفاؤه من الشمال الشرقى . ولم يوزع فليب قوّته لملاقاة هذه الهجمات المتفرقة ، بل سار على رأس جيشه الرئيسى لقتال حلفاء چون ، وهزمه عند بوڤين ، بالقرب من ليل Lille (١٢١٤) . وأسفرت هذه المعركة عن كثير من النتائج الهامة ، أسفرت عن خلع أوتو ، وتولى فردريك الثانى عرش ألمانيا ، وقضت على زعامة ألمانيا للقارة الأوربية ، وعجلت اضمحلال الدولة الرومانية الشرقية ، وأخضعت كونت فلاندرز وخلفاءه لطاعة ملوك فرنسا ، وضمت أمين ، ودويه ، وليل ، وسان كنتن إلى أملاك التاج الفرنسى ، ووسعت رقعة فرنسا الشمالية الشرقية بالفعل حتى وصلت إلى نهر الرين ، وتركت چون عديم الحول والطول أمام باروناته ، وأرغمته على توقيع العهد الأعظم ، وأضعفت الملَكية وقوّت الإقطاع فى إنجلترا وألمانيا ، على حين أنها قوّت الملكية وأضعفت الإقطاع فى فرنسا ، ويسرت قيام حكومات المدن المحلية والطبقات الوسطى التى عاونت فليب أعظم معاونة فى السلم والحرب .

ولما أن ضاعف فليب أملاكه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه من قبل شرع يحكمها حكما طابعه المهارة والإخلاص . وقضى الرجل نصف وقته فى نزاع مع الكنيسة واستبدل برجال الدين فى مجلسه وفى الوظائف الإدارية رجالا من طبقة المحامين الناشئة . ومنح كثيراً من المدن عهوداً بالحكم الذاتى ، وشجع التجارة بما منح التجار من امتيازات ، وحمى اليهود تارة ، ونهبهم تارة أخرى ، وملأ خزائنه بالمال بأن استبدل بالخدمات الإقطاعية إتاوات نقدية ، وزاد إيراد الملك من ٦٠٠ جنيه فرنسى إلى ١٢٠٠ (نحو ٢٤٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) فى اليوم

وتمت فى أيامه واجهة كنيسة نوتردام Notre Dame ، وبنى اللوفر ليكون حصناً يحرس نهر السين[٦٢] . ولم يمت فليب حتى كانت فرنسة هذه الأيام قد ولدت .

٢ — القديس لويس

ولم يتمكن ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ — ١٢٢٦) فى حكمه القصير من أن يفعل الشىء الكثير . وأهم ما يذكره به التاريخ أنه تزوج بلانش القشتالية Blanche of Castille ، وأنه أنجب منها الرجل الوحيد فى العصور الوسطى الذى أفلح كما أفلح أشوكا فى الهند القديمة فى أن يكون فى واقع الأمر قديساً وملكا جميعاً . وكان لويس التاسع فى الثانية عشرة من عمره ، وكانت والدته فى الثانية والثلاثين حين توفى لويس الثامن . وحافظت بلانش على ما يجرى فى عروقها من دم ملكى ؛ فقد كانت ابنة ألفنسو التاسع Alfonso IX ملك قشتالة ، وحفيدة هنرى الثانى وإليانور الأكتانية ، وكانت ذات جمال ، وفتنة ، ونشاط ، وأخلاق قويمة ، ومهارة فائقة . وكانت فى الوقت عينه ذات أثر كبير فى عصرها لما اتصفت به من الفضائل بوصفها زوجة وأرملة ، وإخلاص لبنيها الأحد عشر . ولم تكن فرنسا تكرمها لأنها بلانش الملكة الصالحة Blanche la bonne reine فحسب ، بل كانت تكرمها أيضاً لأنها بلانش الأم الصالحة Blanche la bonne mère . وقد أعتقت فى حياتها كثيرين من أرقاء الأرض الذين يعملون فى الضياع الملكية ، وتصدقت بالأموال الكثيرة ، وأدت من مالها البائنات لكثير من البنات التى يحول فقرهن دون تشجيع الشبان على حبهن . وأعانت بالمال بناء كنيسة شارتر Chartres الكبيرة . وبفضل نفوذها أظهر زجاج الكنيسة الملوّن العذراء مريم فى صورة الملكة لا فى صورة العذراء[٦٣] . وكانت مفرطة فى حب ابنها لويس ، ولم تكن كريمة فى معاملتها زوجته . وقد عكفت

على تربيته على الفضائل المسيحية ، وكانت تقول له إنها تفضل أن تراه ميتاً عن أن تراه يرتكب أحد الذنوب البشرية[٦٤] . على أن أعمالها هذه لم تكن هى التى جعلت لويس رجلا متديناً مخلصاً لدينه ؛ وذلك أنها هى نفسها قلما كانت تضحى بالسياسة فى سبيل العاطفة ؛ فقد انضمت إلى الحرب الألبجنسية الدينية ، لكى تبسط سلطان التاج على فرنسا الجنوبية . وظلت تحكم المملكة تسع سنين (١٢٢٦ — ١٢٣٥) كبر فى أثنائها لويس ، وقلما استمتعت فرنسا بحكم خير من حكمها . وثار البارونات فى بداية حكمها نائبة عن ولدها ، ظنا منهم أن فى مقدورهم أن يستعيدوا من امرأة ما انتزعه فيليب الثانى منهم من سلطات ؛ ولكنها تغلبت عليهم بحكمتها وسياستها وطول أناتها ؛ وقاومت إنجلترا مقاومة شديدة ؛ ثم وقعت معها هدنة بشروط عادلة . ولما بلغ لويس التاسع سن الرشد ، وتولى شئون الحكم ، ورث مملكة قوية ، مستمتعة بالسلم والرخاء .

وكان لويس شاباً وسيماً ، أطول من معظم الفرسان بمقدار طول رأسه ، حسن الملامح دقيقها ، أبيض لون البشرة ، ذا شعر أشقر غزير ، وكان ذا ذوق راق ، مغرماً بالأثاث الفخم المترف ، والثياب الملونة ؛ ولم يكن مكباً على مطالعة الكتب ، بل كان يميل إلى اقتناص الحيوان وصيد الطير ، وضروب التسلية والألعاب الرياضية ؛ ولم يكن قد أصبح بعد قديساً ، وشاهد ذلك أن راهباً شكا بلانش من مغازلة ولدها للفتيات ، فبحثت له عن زوجة ، وعاش معها عيشة الهدوء والاستقرار ، وأصبح مضرب المثل فى وفاء الأزواج ونشاط الآباء . وكان له أحد عشر ولداً كان له هو نصيب موفور فى تربيتهم ؛ فتخلى على الترف شيئاً فشيئاً ، واعتاد بالتدريج عيشة البساطة المتزايدة ، وصرف همه فى شئون الحكم ، والصدقات ، والتقوى . وكان يرى أن الملكية أداة للوحدة القومية واتصالها ، وحماية الفقراء والضعفاء من الأقلية العليا المحظوظة .

وكان يحترم حقوق النبلاء ، ويشجعهم على الوفاء بالتزاماتهم لأرقاء الأرض ،

والأتباع ، والسادة ؛ ولكنه لا يطيق الاعتداء على سلطة الملك الحديثة العهد ؛ ويمنع بعزيمته الماضية أن يقع ظلم من سيد على تابع . وكثيراً ما أنزل أشد العقاب بالبارونات الذين قتلوا أتباعهم من غير محاكمة . ولما أن شنق إنجران ده كوسى Enguerrand de Coucy ثلاثة طلاب فلمنكيين لقتلهم بضعة أرانب برية فى ضيعته ، أمر لويس بسجنه فى برج اللوفر ، وهدده بالشنق ، ولم يطلقه إلا بعد أن اشترط عليه أن يبنى ثلاث كنائس صغيرة تتلى فيها الصلوات كل يوم لأرواح ضحاياه ، وأن يهب الغابة التى صاد فيها الطلبة الشبان الأرانب لدير القديس نقولاس ، وأن يفقد فى مزرعته حق الصيد والحقوق القضائية ، وأن يخدم ثلاث سنين فى فلسطين ، ويؤدى إلى الملك غرامة قدرها ١٢,٥٠٠ جنيه[٦٥] . وحرم لويس الثأر الإقطاعى والحروب الإقطاعية بين الأمراء ، ونهى عن المبارزة بوصفها وسيلة من الوسائل القضائية . . . ولما حلت المحاكمة عن طريق الأدلة والبراهين محل القتال ، تخلت محاكم البارونات عن مكانها شيئاً فشيئاً للمحاكم الملكية التى نظمها فى كل مقاطعة مأمورو الملك ، وتقرر حق استئناف أحكام القضاة البارونات إلى محكمة الملك المركزية ؛ وشهد القرن الثالث عشر فى فرنسا ، كما شهد إنجلترا استبدال قانون الدولة العام بالقانون الإقطاعى . وقصارى القول أن فرنسا لم تنعم منذ أيام الرومان بما نعمت به فى عهد لويس التاسع من أمن ورخاء ؛ وحسبنا دليلا على هذا أن ثروة فرنسا فى أيامه بلغت من الوفرة درجة ارتفعت بها العمارة القوطية إلى أقصى حدود الكثرة والكمال .

وكان يعتقد أن فى مقدور الحكومة أن تكون عادلة كريمة فى علاقاتها الخارجية دون أن تفقد بذلك هيبتها وقوتها . وكان يتجنب الحرب أطول أمد مستطاع ؛ فإذا لاح خطر الاعتداء عليه نظم جيوشه أحسن تنظيم ، ووضع خططه الحربية ، وقادها — فى أوربا — بجد ومهارة نال بهما سلماً كريمة لم تترك فى نفوس أعدائه رغبة فى الانتقام . وما كادت فرنسا تتأكد من سلامتها ، حتى

عهد الملك إلى سياسة المصالحة التى قبل بمقتضاها التوفيق بين الحقوق المتعارضة ورفض التهدئة الناشئة من إجابة المطالب غير العادلة . وقد رد إلى إنجلترا وأسبانيا أقاليم اغتصبها منهما أسلافه ، وأسف لذلك مستشاروه ، ولكنه ضمن بعمله هذا استتباب السلام ، ونجت فرنسا من الهجوم حتى فى أثناء غياب لويس فى الحروب الصليبية . ويقول عنه ولیم الشارتريسى William of Chartres إن « الناس كانوا يخشونه لأنهم موقنون بعدله »(٦٦) . ولم تشتبك فرنسا من ١٢٤٣ إلى ١٢٧٠ فى حرب مع عدو لها مسيحى ؛ ولما أن أخذ جيرانها يحارب بعضهم بعضاً بذل لويس ما يستطيع من جهد للتوفيق بينهم ، وسخر من قول مجلسه إن من الواجب إثارة هذا النزاع لكى تضعف بذلك قوة من قد يصبحون أعداءه فى مستقبل الأيام(٦٧) . وكان الملوك الأجانب يحكمونه فيما يشجر بينهم من نزاع ، وكان الناس يعجبون كيف يستطيع هذا الرجل الصالح أن يكون ملكا صالحاً .

ولم يكن لويس « ذلك الوحش الكامل الذى لم يعرفه العالم قط » — أى الرجل المبرأ من جميع العيوب . فقد كان يغضب أحياناً ، ولعل سوء صحته هو سبب غضبه . وكانت سذاجته تصل فى بعض الأحيان إلى حد الجهالة أو السذاجة اللتين يستحق عليهما أشد اللوم ، ودليلنا على ذلك ما ارتكبه من خطأ شنيع إذ تورط فى الحروب الصليبية والمعارك الخاسرة فى مصر وتونس ، حيث ضاعت أرواح كثيرة فضلا عن روحه هو ؛ ومع أنه راعى واجب الشرف والأمانة فى معاملته أعداءه المسلمين ، فإنه لم تطاوعه نفسه على أن يطبق فى معاملته إياهم روح التفاهم الكريم الذى نجح به أيما نجاح مع أعدائه المسيحيين . وقد دفعه إيمانه الدينى القوى الشبيه بإيمان الأطفال إلى درجة من عدم التسامح الدينى ساعدت على إنشاء محكمة التفتيش فى فرنسا ، وهدأت ما تنطوى عليه نفسه من رحمة نحو ضحايا الحروب الصليبية الألبجنسية . وقد امتلأت خزائنه بالبضائع

والأموال التي صادرها من المارقين الذين حكم بإدانتهم[٦٨] ، وقد خانته روحه المرحة وفكاهته في معاملته اليهود الفرنسيين .

فإذا أسقطنا من صحيفته هذه العيوب رأينا أنه قد اقترب قربا يشرفه من المثل المسيحي الأعلى ، انظر إلى ما يقوله عنه جوانفيل Joinville « لم أسمعه قط في يوم من أيام حياتي يقول قالة السوء عن أي إنسان[٦٩] » . ولما أن قبل آسروه المسلمون خطأ منهم عشرة آلاف جنيه فرنسي (أي نحو ٢ر٨٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكي) أقل من الفدية المتفق عليها ، أرسل لويس بعد أن أطلق سراحه جميع القدر الناقص من مال الفداء ، وأغضب بذلك مستشاريه[٧٠] . وقبل أن يغادر البلاد للقتال في حربه الصليبية الأولى ، أمر موظفيه في جميع أنحاء مملكته « أن يتلقوا كتابة ، وأن يحققوا ، كل ما عساه أن يقدم فينا أو في أسلافنا من الشكاوى . وكذلك جميع ما يقام على مأمورينا أو محافظينا أو حراس غاباتنا ، أو رؤساء جنودنا أو مرءوسيهم من دعاوى خاصة بمظالم ارتكبوها أو اغتصاب للأموال »[٧١] . ويقول جوانفيل « وكثيراً ما كان يخرج بعد الصلاة ، ويجلس مستنداً إلى شجرة في غابة ڤنسن Vincenne ويأمرنا بالجلوس حوله . ويقبل عليه كل من له مظلمة ويتحدث إليه دون أن يحول بينه حائل أو يقدمه حاجب » . ثم يفصل في بعض القضايا بنفسه ، ويحيل بعضها إلى مستشاريه الجالسين حوله ، ولكنه كان يعطي كل شاك حق استئناف الحكم للملك نفسه[٧٢] . وقد أنشأ المستشفيات والملاجئ ، والأديرة ، والمضايف للغرباء ، وبيتاً للمكفوفين ، وآخر للعاهرات التائبات « بنات الله » ؛ وأمر عماله في كل مقاطعة أن يبحثوا عن العجزة والفقراء ، وينفقوا عليهم من الأموال العامة . وكان أينما سار يجعل من مبادئه المقررة أن يطعم مائة وعشرين فقيراً في كل يوم . وكان يأمر بأن يجلس معه على مائدته ثلاثة منهم ، يتولى هو تقديم الطعام لهم ويغسل بنفسه أقدامهم[٧٣] . وكان يفعل ما يفعله هنري الثالث ملك إنجلترا فيقف على المائدة في خدمة المجذومين ، ويطعمهم بيديه . ولما حل القحط

بنورمندية ، أنفق الأموال الطائلة فى توفير الطعام للمحتاجين من أهلها . وكان يقدم الصدقات كل يوم للمرضى ، والفقراء ، والأرامل ، والنساء اللاتى فى حالات النفاس ، والعاهرات ، والعاجزين من العمال « حتى ليتعذر علينا أن نحصى صدقاته »(٧٤) . ولم يكن ليفسد هذه الصدقات بإذاعتها بين الناس . وكان الفقراء الذين يغسل أقدامهم يختارون من بين المكفوفين ، وكان يعمل عمله هذا خفية ، و يقال لهؤلاء إن الملك هو الذى يخدمهم ؛ ولم يكن أحد من الناس يعرف زهده وتعذيبه نفسه حتى شوهدت آثارهما على جسمه بعد وفاته(٧٥) .

وأصيب أثناء حروبه فى عام ١٢٤٢ بالملاريا فى مناقع سانتونج Saintonge ؛ وأسفر هذا المرض عن إصابته بفقر دم خبيث ، وأوشك على الموت فى عام ١٢٤٤ . ولعل هذه المصائب قد زادت روحه الدينية تدريجاً ، فإنه ما كاد يشفى من مرضه حتى أقسم أن يشن الحرب الصليبية ، وأضعف صحته بانهماكه زهده وتعذيب نفسه . ولما عاد من حربه الصليبية الأولى ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره كان قد انحنى جسمه وأصابه الصلع ، ولم يبق من نضرة شبابه وجماله إلا ما يخلعه عليه إيمانه الساذج من خلق جميل وإرادة طيبة . وكان يرتدى قميصاً من الشعر ، تحت مئزر الرهبان الرمادى ، ويأمر بأن يُضرب بسلاسل صغيرة من الحديد ، ويحب طائفتى الرهبان الجديدتين — الفرنسسكان والدمنيكان ، ويهبهم المال بلا حساب ، ولم يمتنع عن أن يكون هو راهباً فرنسسكانيا إلا بعد جهد جهيد . وكان يحضر الصلوات مرتين كل يوم ، ويتلو الأدعية المقررة أدعية الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ودعاء المساء ، ويتلو صلاة العذراء(*) خمسين مرة قبل أن يأوى إلى فراشه ، ويصحو فى منتصف الليل لينضم إلى قساوسته فى صلاة السحر فى كنيسة قصره(٧٦) . وكان يمتنع من مباشرة زوجه فى صيام الميلاد

(*) AveMaria ومطلعها « السلام لك يا مريم » . (المترجم)

والصوم الكبير ؛ وبلغ من تمسكه بشعائر الدين أن كان معظم رعاياه يبتسمون من تقواه ويلقبونه « الأخ لويس » . وقالت له امرأة جريئة : « إن من الخير أن يكون فى مكانك ملك غيرك ، فلست أنت إلا ملك الفرنسسكان والدمنيكان ؛ . إن من العار أن تكون أنت ملك فرنسا ، ومن أعجب العجائب ألا يخلعوك » ؛ فأجابها لويس بقوله : « لقد قلت حقاً . . . فلست خليقاً بأن أكون ملكاً . . ولو أراد منقذنا لوضع فى مكانى رجلا غيرى يعرف خيراً منى كيف يحكم المملكة »[٧٧] .

وكان شديد التحمس لخرافات أهل زمانه ويشاركهم فيها . من ذلك أن دير القديس دنيس كان يدعى أن لديه مسماراً من الصليب الحق ، وحدث أن وُضع المسمار فى غير موضعه بعد احتفال عُرض فيه على الشعب ؛ فثارت لهذا الحادث ضجة كبيرة ، ثم وُجد المسمار وارتاح الملك كثيراً لوجوده ، حتى قال : « لقد كان خيراً لى من هذا أن تبتلع الأرض أحسن مدينة فى ملكى »[٧٨] . وفى عام ١٢٣٦ احتاج بولدون الثانى إمبراطور القسطنطينية إلى المال لينقذ دولته المتداعية ، فباع للويس تاج الأشواك الذى لبسه المسيح فى آلامه بأحد عشر ألف جنيه فرنسى (٢,٢٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) . واشترى لويس من الدلاّل نفسه بعد خمس سنين من ذلك الوقت قطعة من الصليب الحقيقى ، ولربما كان المقصود بهذا الشراء وذاك أن يكون المال هبة من لويس لدولة مسيحية تفرج به أزمتها . وأمر لويس بطرس المنتربلى Peter of Montreuil ليبنى سينت شابل Sainte Chapelle ليُودع فيها هذان الأثران .

ولم يكن لويس رغم صلاحه هذا أداة طيعة فى أيدى رجال الدين ، فقد كان يدرك ما فى طبيعتهم البشرية من عيوب ، ويعاقبهم عليها بالقدوة الطيبة والتقريع العلنى[٧٩] . وقد قيد سلطات المحاكم الكنسية ، وبسط سلطة القانون على جميع المواطنين ، سواء كانوا من رجال الدنيا أو من رجال الدين ، وأصدر فى عام

١٢٦٨ أول الأوامر العالية التي قيد بها حق البابا في تعيين أصحاب المناصب الدينية وجباية الضرائب في فرنسا : « تقرر أنه لا يجوز لأحد أن يفرض أو يجبى بأية طريقة كانت فروضاً أو ضرائب مالية فرضتها محكمة رومة . . . إلا إذا كانت القضية معقولة ، متفقة مع أصول الدين ، وعاجلة جداً . . . ونالت موافقتنا الصريحة من تلقاء أنفسنا ، وموافقة كنيسة مملكتنا »(*) .

وقد بقي لويس الملك على الدوام رغم زهده وميوله الدينية ؛ ولقد حافظ على جلال الملك حتى ساعة أن ظهر واقفاً على قدميه ، مرتدياً ثياب الحاج ، وبيده عصا الحاج ليبدأ حربه الصليبية الأولى (١٢٤٨) . وهو صاحب « الجسم الرفيع » النحيل ، والوجه الشبيه بوجوه الملائكة الأطهار ، والمحيا الملىء بشراً وسماحة »(٨١) كما يصفه فراسلمبين Fra Salimbene . وقد بكت الملكة بلانش وهو يفارقها بعد أن أنابها عنه في البلاد وإن كانت في سن الستين وقالت : « يا أحب الأبناء وأجملهم ، يا أجمل الأبناء وأرقهم قلباً ، إني لن أراك بعد اليوم »(٨٢). وأسر لويس في مصر ، وظل في الأسر حتى افتدى بمبلغ من المال جمعته بلانش بعد عناء كبير ، ولكنه لما عاد إلى فرنسا مهزوماً ذليلا وجد أن أمه قد توفيت . ثم أقدم في عام ١٢٧٠ رغم ضعفه ومرضه على حرب صليبية أخرى ونزل هذه المرة في تونس . ولم تكن هذه مغامرة جنونية سخيفة كما بدت للناس بسبب خيبتها . ذلك أن لويس قد سمح لأخيه شارل دوق أنجو أن يقود جيشاً فرنسياً إلى إيطاليا ، وكان يبغى من وراء هذا أن يضعف سيطرة الألمان عليها ، ويرجو أن يتخذ صقلية قاعدة تغزو بها فرنسا بلاد تونس ، وبعد أن وصل المحارب العظيم المحطم الجسم الصغير السن إلى أرض تونس ، مات بزحار البطن . وسلكته

(*) ملمان Milman في ص ١١٩ من المجلد السادس من كتاب « تاريخ المسيحية اللاتينية History of Latin Christianity » . والرأى السائد أن هذا القرار صحيح من الوجهة التاريخية(٨٠) ، ولكن ربما كان المدافعون عن فليب الرابع قد اخترعوه من عندهم ليكون سلاحا يشهرونه في وجه بنيفاس الثامن . انظر دائرة المعارف الكاثوليكية في اسم لويس التاسع .

الكنيسة بعد سبع وعشرين سنة من موته فى عداد القديسين . وظل الناس بعد وفاته أجيالا وقروناً يرون أن حكمه هو العصر الذهبى فى تاريخ فرنسا ، ويعجبون كيف لا تتيح الأقدار التى لا يفقهون تصريفها لأمور البشر ملكاً آخر لفرنسا يماثله . ذلك أنه كان ملكاً مسيحياً بحق .

٣ — فليپ الجميل

زادت الحروب الصليبية من قوة فرنسا ، وكان لها فيها شأن كبير . وأكسبها طول حكم فليب أغسطس ولويس التاسع استقراراً واتصالا فى الحكم فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تعانى الأمرين من إهمال رتشرد الأول ، واستهتار چون ، وعجز هنرى الثالث ، وكانت فيه ألمانيا مفككة الأوصال من أثر الحروب الناشبة بين الأباطرة والبابوات ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت فرنسا أقوى دول أوربا كلها .

وكان فليب الرابع يلقب بالجميل le Bel لجمال جسمه ووجهه ، لا لدهائه السياسى وجرأته وقسوة قلبه . وكان ذا آمال واسعة : كان يأمل أن يخضع كل الطبقات — الأشراف ، ورجال الدين ، وأهل المدن ، وأرقاء الأرض — لحكم القانون وسيطرة الملك مباشرة ، وأن يقيم نماء فرنسا وتقدمها على أساس التجارة والصناعة لا الزراعة ، وأن يمد حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، وجبال البرانس ، والبحر المتوسط ، وجبال الألب ، ونهر الرين . ولم يختر أعوانه ومستشاريه من كبار رجال الدين والأشراف الذين ظلوا يخدمون ملوك فرنسا طوال الأربعة القرون الماضـــية ، بل اختارهم من طبقة المحامين الذين أقبلوا عليه وعقولهم مفعمة بالأفكار الاستعمارية التى أوحى إليهم بها القانون الرومانى . فكان پيير فلت Pierre Flotte وجيوم ده نوجاريه Guilluame de Nogaret من ذوى العقول النابهة الذين لا يبالون بالمبادئ الأخلاقية أو السوابق ؛ وشاد فليب بفضل توجيههم صرح القانون الفرنسى ، وأحلّ الشريعة الملكية محل

الشريعة الإقطاعية ، وانتصر على أعدائه بسياسته الحصيفة ، وحطم فى نهاية الأمر سلطان البابوية ، وجعل البابا فى الواقع سجيناً فى فرنسا : وحاول أن يفصل جوين Guienne عن إنجلترا ، ولكنه وجد إدورد الأول قوياً لا يُغلب ، وحصل على شمبانيا Champagne ، وبرى Brie ، وتبرة بطريق الزواج ، وابتاع بالمال شارتر ، وفرانش كمتيه Franch - Comté ، وإقليم ليون وجزءاً من اللورين .

وكان دائم الحاجة إلى المال ، ولهذا وجّه نصف ذكائه ونصف وقته إلى اختراع الضرائب وجمع الأموال ، واستبدل المال بالقروض الإقطاعية الواجب أداؤها للتاج ؛ وكم من مرة خفض قيمة النقد ، وأصر على أن تؤدى الضرائب سبائك أو بالنقد الصحيح القيمة ، ونفى اليهود واللمبارد وقضى على فرسان المعبد ليصادر أملاكهم ، وحرم إصدار المعادن النفيسة من بلاده ، وفرض رسوماً باهظة على الصادرات والواردات ، والمبيعات ، وضريبة حربية مقدارها بنس على كل جنيه فرنسى فى ثروة الأفراد فى فرنسا . ثم فرض أخيراً ضريبة على الكنيسة دون أن يستشير البابا ، وكانت الكنيسة وقتئذ تمتلك ربع أرض فرنسا . وسنروى قصة هذا الصراع عند الكلام على بنيفاس الثامن . ولما مات البابا الطاعن فى السن بعد أن حطمه الكفاح ، استخدم فيليب ماله وأعوانه فى اختيار رجل فرنسى لقب كلمنت الخامس فى مكانه ، كما استطاع أن ينقل مقر البابا إلى أفنيون ، وهكذا انتصر فيليب على البابوية انتصاراً لم يظفر به من قبل على الكنيسة رجل من غير أهلها ، وأصبح رجال القانون فى فرنسا من هذا الوقت هم الذين يحكمون رجال الدين .

وتنبأ الرئيس الأكبر لفرسان المعبد وهو سائر إلى الخشبة التى يشد عليها من يراد إحراقهم بأن فليب سيتبعه فى خلال عام واحد . وقد صدقت النبوءة ، ولم يمت فيليب وحده فى عام ١٣١٤ بل مات فيها كلمنت أيضاً — ولم يكن الملك

المنتصر قد تجاوز وقتئذ السادسة والأربعين من عمره . وكان الشعب الفرنسي يعجب بشجاعته وصلابة رأيه . وأيده في صراعه مع بنيفاس ، ولكنه يصب اللعنات على ذكراه ويراه أشد الملوك استبداداً في تاريخه كله . وكادت انتصاراته تحطم كيان فرنسا . وقد كان تخفيضه قيمة النقد سبباً في اضطراب الاقتصاد القومي . وكانت الأجور العالية للأراضي الزراعية والأثمان المرتفعة سبباً في فقر الشعب ، وأضرت الضرائب الفادحة بالصناعة ، كما كان نفي اليهود واللمبارد سبباً في شل حركة التجارة وفي خراب الأسواق وتعطيل المواسم التجارية . وجملة القول أن الرخاء الذي ازداد في عهد القديس لويس قد نقص واضمحل في عهد فليب الذي يتقن جميع ما في القانون والسياسة من ألاعيب(٨٣) .

وجلس على العرش ثلاثة أبناء لفليب وواراهم الثرى في خلال الأربعة عشر عاماً التي أعقبت وفاته ، ولم ينجب واحد منهم أبناء يرثون ملكه ، بل ترك شارل الرابع (المتوفى عام ١٣٢٨) بنات ، اتخذ القانون السالي القديم ذريعة لحرمانهم من التاج . وكان أقرب وريث من الذكور للأسرة المالكة هو فليب الفالوازي Philip of Valois ابن أخي فليب الجميل ، فلما تولى الملك انتهت بموته الأسرة المالكة التي تناسلت من الملوك الكابيتيين مباشرة وبدأ عهد أسرة ڤالوا .

وإذا ألقينا نظرة عامة عاجلة على أحوال فرنسا في ذلك الوقت رأينا أنها تقدمت تقدماً عجيباً في النواحي الاقتصادية ، والتشريعية ، والتعليمية ، والأدبية ، والفنية . فقد كان نظام رقيق الأرض يختفي من البلاد بخطى سريعة ، لأن نمو الصناعات في المدن كان يغري الناس بالنزوع إليها من المزارع ، حتى بلغ سكان باريس مائتي ألف في عام ١٣١٤ ، وبلغ سكان فرنسا ٢٢,٠٠٠,٠٠٠(٨٤) ؛ ولما قدم برونتو لاتيني إلى فرنسا فاراً من الاضطهاد السياسي في فلورنس دهش مما كان يسود شوارع باريس في عهد لويس التاسع من أمن وطمأنينة ، وما كان فيه

المدن من تجارة وصناعة ، وما كان فى الريف الجميل المحيط بالعاصمة من حقول وكروم مثمرة (٨٥) .

وأوشكت الطبقتان الناشئتان ، طبقتا الموظفين ورجال الأعمال ، أن تضارعا فى الثراء طبقة رجال الأعمال ، فاضطرت الدولة إلى تمثيل هاتين الطبقتين فى مجلس الطبقات Etats Generaux الذى دعاه فليب الرابع إلى الانعقاد فى باريس عام ١٣٠٢ ليقدم له المعونة الأدبية والمالية فى نزاعه مع بنيفاس . ولم تكن هذه المجالس العامة التى تمثل فيها الطبقات — الأعيان ، ورجال الدين ، والعامة — لم تكن هذه المجالس تدعى إلى الانعقاد إلا فى الضرورات القصوى (١٣٠٢ ، ١٣٠٨ ، ١٣١٤ . . .) وكان المحامون الذين يخدمون الملك بوصفهم مجلسا للدولة Conseil d'etat يوجهونها توجيهاً ماهراً نحو الهدف الذى يريدونه . أما برلمان باريس الذى اتخذ شكله المعروف به فى عهد لويس التاسع فلم يكن جمعية نيابية ، بل كان هيئة مؤلفة من أربعة وتسعين من المحامين ورجال الدين يعينهم الملك ويجتمع مرة أو مرتين فى العام ليكون محكمة عليا . وقد نشأت من أحكامه مجموعة من التشريعات القومية تعتمد على القانون الرومانى لا على شرائع الفرنجة ، وتهب الملكية المعونة الكاملة المستمدة من التقاليد القانونية القديمة .

وقد بقيت الفورة العقلية التى سادت عهد فليب الرابع محفوظة لأهل هذا الجيل فى الرسائل السياسية التى كتبها أحد أنصاره — پيير دوبوا Pierre Dubois (١٢٥٥ — ١٣١٢) ، وهو محام مثل كوتانس Coutances فى مجلس الطبقات الذى عقد فى عام ١٣٠٢ . فقد عرض دوبوا فى رسالتين من رسائله « ملتمس مقدم من شعب فرنسا إلى الملك ضد البابا بنيفاس Supplication de peuple de France Contre le pape Boniface (١٣٩٤) » وفى نبذة عن

« استرداد الأرض المقدسة » (١٣٠٦) آراء تكشف لنا عن الثغرة الواسعة التى كانت تفصل فى ذلك الوقت عقلية رجال القانون عن عقلية رجال الكنيسة فى فرنسا . من ذلك ما قاله دوبوا من أن الكنيسة يجب ألا تحبس عليها الأموال ، وأن تجرى عليها من الآن معونة مالية من الدولة ؛ ويجب أن تفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة ؛ وأن تجرد البابوية من جميع السلطات الزمنية ، وأن تكون الدولة صاحبة السلطة العليا . وقال أيضاً إن فليب يجب أن يعين إمبراطوراً لدولة أوربا الموحدة ، وأن تكون القسطنطينية عاصمته ؛ وأن تؤلف محكمة دولية لتفصل فيما يشجر بين الأمم من نزاع ، وأن تعلن المقاطعة الاقتصادية على أية أمة مسيحية تحارب أمة مسيحية أخرى ؛ وأن تنشأ فى رومة مدرسة للدراسات الشرقية ؛ وأن يتاح للنساء جميع ما يتاح للرجال من فرص تعليمية ، وأن يتساوين مع الرجال فى جميع الحقوق السياسية(٨٦) .

وكان هذا العصر عصر شعراء الفروسية الذين يتغنون بالحب العذرى فى پروڤانس ؛ وعصر قصاصى الملاحم فى شمالى فرنسا ، وعصر أغنية رولان Chanson de Roland ، وغيرها من الأغانى الرمزية ؛ وأغنية أوكسان ونيقولت Aucassin et Nicolette ، وقصة الوردة Roman de la Rose ، والعصر الذى ظهر فيه المؤرخان اللذان يعدان طليعتى المؤرخين الفرنسيين البارزين وهما ڤلاردوين Villardhouin وچوانڤيل . ونظمت فى هذا العهـــد الجامعات الكبرى فى باريس وأورليان ، وأنچير Angers ، وطولوز (طلوشة) ، ومنپلييه . بدأ هذا العصر بروسلن Roscelin وأبلار Abélare وانتهى بأعلى ما وصلت إليه الفلسفة المدرســـية Scholastic Philosophy . وكان عصر النشوة القوطية — التى ظهرت فى الكنائس الفخمه الكبرى فى سان دنيس ، وتشارتر ، ونوتردام ، وأمين ،

وريمس ، وفى النحت القوطى فى أكمل مظاهره الروحية . وكان الفرنسيون وقتئذ يفخرون فخراً لا نلومهم عليه بوطنهم ، وعاصمتهم ، وثقافتهم ؛ وكانت وطنية قومية تعمل لوحدة البلاد تحل تدريجاً محل النعرة الإقليمية التى كانت تسود عصر الإقطاع ؛ وأخذ الناس ذلك الحين يتحدثون حديث الحب والإعزاز عن « فرنسا الحلوة » ، كما نرى ذلك فى أغنية رولان . وملاك القول أن الحضارة المسيحية قد بلغت عظمتها فى فرنسا وإيطاليا .

الفصل الثانى عشر

أسبانيا : ١٠٩٦ – ١٢٨٥

سار المسيحيون فى فتح أسپانيا بالسرعة التى أمكنتهم منها الفوضى الناشئة من تطاحن الملوك الأسپان ، ومنح البابوات من عاونوا على إخراج المسلمين من أسپانيا لقب المحاربين الصليبيين وامتيازاتهم ؛ وأقبل بعض فرسان المعبد من فرنسا للانضمام إلى أهل البلاد المسيحيين ؛ وتكونت فى القرن الثانى عشر ثلاث جماعات دينية حربية — فرسان كلاترافا Calarrava ، وفرسان سنتياجو ، وفرسان القنطرة ؛ واستولى ألفنسو الأول (الأذفنش) فى عام ١١١٨ ملك أرغونة على مدينة سرقسطة ؛ وفى عام ١١٩٥ هزم المسيحيون ، ولكنهم كادوا يبيدون جيش الموحدين الأكبر فى واقعة العقاب Las Navkas de Tolosa فى عام ١٢١٢ . وكان نصرهم فى هذه الواقعة نصراً حاسماً ، تحطمت على أثره مقاومة المسلمين وسقطت قلاعهم واحدة بعد واحدة فى أيدى المسيحيين : قرطبة (١٢٣٦) ، وبلنسية (١٢٣٨) ، وإشبيلية (١٢٤٨) ، وقادس (١٢٥٠) ، ثم وقف فتح المسيحيين نحو قرنين ليفسح الوقت إلى حروب الملوك .

ولما هزم ألفنسو (الأذفنش) الثامن ملك قشتالة هجم على مملكته ملكا ليون ونبرة وكانا قد وعداه من قبل بأن يخفَّا لمساعدته ، واضطر ألفنسو إلى عقد الصلح مع المسلمين ليحمى نفسه من غدر المسيحيين[٨٧] . وأعاد فرنندو الثالث Fernando III (١٢١٧ — ١٢٥٢) توحيد ليون Leon وقشتالة ، ووسع حدود المملكة الكاثوليكية إلى غرناطة ، واتخذ إشبيلية عاصمة لملكه ، وحول مسجدها العظيم إلى كنيسة ، واتخذ القصر Alcazar مسكناً له ، وكانت الكنيسة تعدّه وقت مولده ابناً غير شرعى ، ولكنه عدّته قدساً بعد

وفاته . وكان ابنه ألفنسو (الأذفنش) العاشر (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عالماً ممتازاً ، ضعيف العزيمة ؛ وأعجب الأذفنش الحكيم (el Sabio) بما وجده فى إشبيلية من علوم المسلمين ، فتحدى المتعصبين من أهل ملته باستخدام العلماء من العرب واليهود والمسيحيين على السواء لترجمة كتب المسلمين إلى اللغة اللاتينية كى تستطيع أوربا أن تفيد من هذه العلوم . وقد أنشأ هذا الملك مدرسة لعلم الهيئة هى صاحبة « الأزياج الأذفنشية » الخاصة بالأجرام السماوية وحركاتها التى أضحت المرجع الذى يعتمد عليه علماء الهيئة المسيحيون . ونظم هذا الملك هيئة من المؤرخين ، وضعت كتاباً سمته باسمه جمعت فيه تاريخ أسبانيا ، وتاريخاً عاماً واسعاً للعالم كله ، ونظم نحو ٤٥٠ قصيدة ، بعضها بلغة قشتالة ، وبعضها باللغة الجليقية — البرتغالية ؛ ولُحِّن الكثير منها ، ولا تزال هذه القصائد باقية حتى اليوم ، أثراً خالداً لأغا العصور الوسطى . وفاضت ماسته الأدبية فى عدة كتب ألفها هو أو أمر بتأليفها ، فى ألعاب الداما ، والشطرنج ، والنرد ، والموسيقى ، والملاحة ، والكيمياء ، والفلسفة . ولعله أيضاً قد أمر بترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية إلى القشتالية مباشرة . وقد رفع اللغة القشتالية إلى المرتبة العليا التى أمكنتها من أن تسيطر من ذلك الوقت إلى يومنا هذا على الحياة الأدبية فى أسبانيا ؛ ولقد كان هو فى واقع الأمر منشئ الأدب الأسبانى والبرتغالى ، وعلم التاريخ الأسبانى ، والمصطلحات العلمية الأسبانية . ولكنه لوّث تاريخه الوضّاء بما حاكه من الدسائس للاستيلاء على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأنفق فى هذه المحاولة كثيراً من أموال أسبانيا ، وعمل على ملء خزائنه بزيادة الضرائب وتخفيض قيمة النقد ، ثم خُلع ورُفع ابنه إلى العرش ، وعاش بعد سقوطه عامين ، ثم مات محطما كسير القلب .

وارتفع شأن أرغونة بزواج ملكتها پترونلا Petronella من الكونت رامون برنجر Ramon Barenger صاحب برشلونة (١١٣٧) ؛ وحصلت أرغونة

بفضل هذا الزواج على قطلونية المشتملة على أعظم الثغور الأسپانية . وعم الرخاء هذه المملكة الجديدة على يد پدرو الثانى Pedro II (١١٩٦ – ١٢١٣) ، بتأمين الموانى ، والأسواق ، والطرق ، وبصرامته فى تنفيذ القانون على من يعبث بهذه المرافق ، وجعل بلاطه فى برشلونة مركز الفروسية والأسپانية والشعراء الغزليين ، وزاد من بهجته أن كان ملتقى المحبين ، ثم تقرب إلى الله – وضمن لنفسه لقبه – بأن قدم أرغونة إلى إنوسنت الثالث على أن يأخذها منه إقطاعية . وكان ابنه چيم Jaime أوچيمس James الأول (١٢١٣ – ١٢٧٦) فى الخامسة من عمره حين قتلى پدرو فى ميدان القتال ؛ واغتنم أشراف أرغونة هذه الفرصة السانحة ليستعيدوا استقلالهم الإقطاعى ؛ ولكن چيمس تولى زمام الأمور وهو فى العاشرة ، وسرعان ما أخضع الأشراف لسلطان الملك . وكان لا يزال شابا فى سن العشرين حين استولى على جزائر البليار ذات الموقع الحربى المنيع من المسلمين (١٢٢٩ – ١٢٣٥) ، واسترد منهم بلنسبة وأليقانط . وقام فى عام ١٢٦٥ بحركة من حركات الفروسية التى هيأتها له الوحدة الأسپانية ، فاستولى على مرسية من المسلمين وأهداها إلى ملك قشتالة . وكان أكثر حكمة من الفنسو الحكيم ، حتى أصبح بفضل هذه الحكمة أقوى ملوك أسپانيا فى ذلك القرن ، لا يقل فى ذلك عن فردريك الثانى ولويس التاسع ، فقد كان يشبه أولهما فى ذكائه ودهائه ، وبسالته المجردة من الضمير . لكن تحلله من قيود الأخلاق . وكثرة طلاقه نساءه ، وحروبه العوان ، وما كان يلجأ إليه من الأعمال الوحشية فى بعض الأحيان تجعل الفرق بينه وبين القديس لويس كبيراً من هذه الناحية .

وقد دبر المؤامرات للاستيلاء على الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا، ولكن لويس استطاع أن يتغلب عليه بقوة صبره وإن كان قد نزل له عن منبلييه . ودبر فى أخريات أيامه مؤامرة أخرى للاستيلاء على صقلية ليتخذها قاعدة حربية، ومركزا تجارياً ، وليجعل البحر المتوسط الغربى بحيرة أسپانية . ولكن هذا

الحلم لم يتحقق إلا فى عهد ولده . ذلك أن پدرو الثالث (١٢٧٦ — ١٢٨٥) ، تزوج ابنة مانفرد ملك صقلية ابن فردريك ، وظن أن هذه الجزيرة من حقه هو حين استولى عليها شارل كونت أنجو ؛ وبارك البابا استيلاءه عليها ، فما كان من پدرو إلا أن ألغى سيادة البابا على أرغونة ، وارتضى الحرمان البابوى ، وركب البحر إلى صقلية .

وشهدت هذه الفترة فى أسپانيا ما شهدته فى إنجلترا وفرنسا من قيام الإقطاع واضمحلاله . بدأه الأشراف بأن تجاهلوا أو كادوا يتجاهلون السلطة المركزية ، فقد كانوا هم ورجال الدين معفين من الضرائب التى كان عبؤها الباهظ واقعاً على عاتق المدن والتجارة ، ثم انتهوا بأن خضعوا للملوك المسلحين بجيوشهم هم ، تؤيدهم موارد المدن وحاجياتها ، ويعلى من مكانتهم إحياؤهم القانونى الرومانى ، الذى كان يفترض أن الحكم الملكى المطلق من بدائه نظام الحكم . ولم يكن ثمة قانون أسپانى فى بداية تلك الفترة ، بل كانت هناك قوانين متفرقة لكل دولة من دول أسپانيا ، ولكل طبقة من طبقات كل دولة . ثم شرع فردريك الثالث يضع نظاماً جديداً لقانون قشتالة ، وأتم ألفنسو العاشر هذا النظام الذى عرف باسم قانون السبعة الأقسام (Siete Partidas) لأنه كان مقسما سبعة أقسام (١٢٦٠ — ١٢٦٥) ، وهو من أتم القوانين وأعظمها شأناً فى تاريخ التشريع . وقد أسس قانون السبعة الأقسام على قوانين القوط الغربيين الأسپان ولكنه عدل لكى يتفق مع قوانين چستنيان ، وكان أرقى من العصر الذى وُضع فيه ، ولهذا ظل مهملا إلى حد كبير ؛ ولكنه أصبح فى عام ١٣٣٨ قانون قشتالة النافذ ، ثم صار فى عام ١٤٩٢ قانون أسپانيا كلها . ثم أدخل چيمس الأول قانوناً مثله فى أرغونة ، فقد نشرت أرغونة فى عام ١٢٨٣ قانوناً تجاريا وبحريا نافذاً ، وأقامت فى بلنسية ثم فى برشلونة وميورقة بعدئذ محاكم تدعى محاكم « قنصلية البحر » .

وتزعمت أسپانيا بلاد العالم فى العصور الوسطى فى إقامة المدن الحرة والأنظمة

النيابية . ذلك أن الملوك أرادوا أن يحصلوا على تأييد المدن فى صراعهم مع الأشراف ، فمنحوا كثيراً من البلدان عهوداً بالحكم الذاتى . وأصبح استقلال المدن بشئونها شهوة جامحة فى أسپانيا كلها ، فأخذت البلدان الصغرى تطالب بتحررها من البلدان الكبرى أو من الأشراف أو الكنيسة ، أو الملك ؛ فلما أفلحت فى نيل هذه الحرية أقامت مشانقها فى السوق العامة رمزاً لحريتها . وكان يحكم برشلونة فى عام ١٢٥٨ مجلس مؤلف من مائتى عضو ، تمثل كثرتهم الغالبة شئون الصناعة والتجارة[٨٨] . وبلغت سيادة المدن زمنا ما حد الاستقلال ، وأخذت تشن الحرب على المسلمين أو بعضها على بعض ؛ ولكنها بالإضافة إلى هذا الاستقلال ألفت من نفسها أخوة hermandades للتعاون على العمل أو للمحافظة على أمنها وسلامتها . ولما أن حاول الأشراف فى عام ١٢٩٥ أن يخضعوا حكومات المدن المحلية ألفت ثلاث وأربعون مدينة « أخوة قشتالة » ، وتعهدت كلها بالاشتراك فى الدفاع عن استقلالها ، وأنشأت لها جيشاً مشتركا . ولما أن هزمت هذه « الأخوة » الأشراف ، فرضت رقابتها على موظفى الملك وكبحت جماحهم ، وسنت قوانين تراعيها المدن المنضمة إلى هذا الحلف التى بلغ عددها مائة مدينة فى بعض الأحيان .

ولقد جرت عادة الملوك الأسپان من زمن بعيد أن يعقدوا من حين إلى حين جمعية من الأشراف ورجال الدين ؛ وأطلق اسم كورتز Cortes أى المحاكم لأول مرة على إحدى هـــذه الجمعيات التى عقدت فى عام ١١٣٧ . وضم كورتز ليون الذى اجتمع فى عام ١١٨٨ بعض رجال الأعمال يمثلون المدن . وأكبر الظن أن هذا هو أقدم مثل من أمثلة النظم النيابية السياسية فى أوربا المسيحية . ووعد الملك فى هذا المجلس التاريخى ألا يعلن الحرب أو يعقد الصلح ، أو يصدر قراراً إلا بعد موافقة الكورتز[٨٩] . واجتمع فى قشتالة أول مجلس من هذا النوع مؤلف من الأعيان ، ورجال الدين ، ورجال المال من الطبقة الوسطى فى عام ١٢٥٠

أى قبل اجتماع « برلمان » إدورد الأول « النموذجى » بخمس وأربعين سنة . ولم يكن الكورتز هو الذى يضع القوانين بنفسه ، ولكنه كان يصوغ « الملتمسات » ويعرضها على الملك ، وكثيراً ما كان لهذا المجلس سلطان على المال يحمل الملك على أن يوافق على هذه « الملتمسات » . وأصدر كورتز قطلونية فى عام ١٢٨٣ قراراً صادق عليه ملك أرغونة بألا يصدر بعد ذلك الوقت أىّ تشريع قومى بغير رضاء المواطنين (cives) ، ثم صدر قرار آخر يطلب إلى الملك أن يدعو الكورتز إلى الاجتماع كل عام ، وسبقت هذين القرارين مثلهما من القراراتِ التى أصدرها البرلمـــان الإنجليزى (١٣١١ ، ١٣٢٢) بأكثر من ربع قرن من الزمان . هذا إلى أن الكورتز عيّن أعضاء يختارهم من كل طبقة من الطبقات الاجتماعية يؤلفون جنتا (Junta) أى اتحاداً ليشرف فى أثناء الفترات التى تقع بين أدوار انعقاد الكورتز على تنفيذ القوانين وإنفاق الأموال التى وافق عليها[٩٠] .

وكان من العوامل التى عقدت مشكلة الحكم فى أسبانيا قيام الجبال التى قسمتها أقساماً منفصلة ، وعرقلت تنفيذ قانون عام موحد فى جميع ربوعها . يضاف إلى هذا أن عدم استواء أرضها ، وجفاف هضبتها ، وما كان يحل بها من الدمار حيناً بعد حين بسبب الحروب ، كل هذا قد عطل الزراعة ، وجعل أسبانيا فى معظم أجزائها مراعى للماشية والضأن ؛ وكانت قطعان الضأن الجميلة الصوف تغذى آلاف الأنوال فى البلدان ؛ ولقد حافظت أسبانيا على شهرتها العالمية القديمة بجمال أصوافها . وكانت التجارة الداخلية تقف فى سبيلها صعاب النقل ، واختلاف الموازين والمقاييس والنقد ، غير أن التجارة الخارجية تمت فى موانئ برشلونة ، وطرقونة ، وبلنسية ، وإشبيلية ، وقادس ؛ وكان تجار قطلونية يجوبون جميع الأقطار ؛ وكان لتجار قشتالة فى عام ١٢٨٢ مركز فى بروج لا يضارعه إلا مركز العصبة الهانسية[٩١] . وأصبح التجار والصناع أعظم من يمدون التاج بالمعونة

المالية ، ونظم صعاليك المدن لهم نقابات طوائف Gremios ، ولكن الملوك كانوا يسيطرون سيطرة قوية على هذه النقابات ، وكانت الطبقات العامة تعانى مساوئ الاستغلال الاقتصادى دون أن تستمتع بحق التمثيل النيابى السياسى .

وكانت كثرة الصناع إما من اليهود أو المسلمين المقيمين فى أسبانيا المسيحية . فأما اليهود فقد أثروا فى أرغونة ، وقشتالة ؛ وأسهموا بحظ موفور فى حياة المملكتين العقلية ؛ وكان عدد كبير منهم تجاراً أغنياء ، ولكن قيوداً متزايدة فى شدتها فرضت عليهم فى نهاية هذه الفترة . وأما المسلمون المقيمون فى أسبانيا المسيحية فقد ترك لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وقسط كبير من الاستقلال بحكم أنفسهم ؛ وكان منهم أيضاً تجار أغنياء ، ودخل عدد قليل منهم فى بلاط الملوك ، كما كان لأرباب الحرف منهم أثر قوى فى العمارة الأسبانية ، وأعمال النجارة الدقيقة ، وأشغال المعادن ، ونتج من أثرهم هذا طراز أسبانى إسلامى أدى إلى استخدام الموضوعات والأشكال الإسلامية فى الفن المسيحى . وقد سمى ألفنسو السادس نفسه فى إحدى نشواته الدينية « إمبراطور العقيدتين Emperador de los Dos Cultos[٩٢] » . ولكن المسلمين فى أسبانيا المسيحية كانوا يرغمون فى العادة على لبس زى خاص ، وعلى أن تكون منازلهم فى كل مدينة فى حى منعزل عن سائر أحيائها ، وكانت تفرض عليهم ضريبة فادحة أكثر مما تفرض على غيرهم ؛ وأخيراً أشعلت الثروة التى جمعوها بفضل مهارتهم فى الأعمال الصناعية والتجارية نار الحسد فى قلوب الأغلبية المسيحية ؛ فأصدر جيمس الأول عام ١٢٤٧ أمراً بطردهم من أرغونة ، فغادرها أكثر من مائة ألف يحملون معهم حذقهم الفنى ، وتدهورت الصناعة فى أرغونة من ذلك الحين .

وبعث امتزاج الحضارة الأسبانية بجزء غير قليل من الثقافة الإسلامية ، والقوة الناشئة من الانتصار على عدو قديم ، وتقدم الصناعة وازدياد الثروة ، وارتقاء العادات والأذواق ، بعث هذا كله فى الحياة العقلية بأسبانيا نشاطاً عظيماً ؛

فشهد القرن الثالث عشر نشأة ست جامعات أسبانيا ، وكان ألفنسو الثانى ملك أرغونة (١١٦٢ — ١١٩٦) أول الشعراء الغزلين الأسبان ، وسرعان ما أصبح هؤلاء الشعراء يعدون بالمئات ؛ ولم يكن هؤلاء يقرضون الشعر فحسب ، بل صاغوا من احتفالات الكنيسة مسرحيات زمنية ، ومهدوا بذلك السبيل إلى روائع لوبى ده ڤيجا Lope de Vega وكلدرون Calderon .
وكان من روائع ذلك العصر أيضاً ملحمة السيد Cid ملحمة أسبانيا القومية .
وكان خيراً من هذا كله فنون الموسيقى ، والغناء ، والرقص التى كانت تفيض من قلوب الشعب فى المنازل والشوارع ، والتى كانت مصدر العظمة والفخامة فى قصور الملوك . وكانت أول مصارعة للثيران على الطراز الحديث سجلت فى تاريخ أسبانيا هى المصارعة التى أقيمت فى أبيلا عام ١١٠٧ فى حفلة عرش ؛ وقبل أن يحل عام ١٣٠٠ كانت تلك المصارعة من الألعاب العامة فى المدن الأسبانية . وجاء الفرسان الفرنسيون الذين أقبلوا على أسبانيا ليساعدوا أهلها فى حروبهم مع المسلمين ، جاءوا معهم فى الوقت عينه بمبادئ الفروسية واحتفالاتها ، فأصبح احترام النساء ، أو احترام ملكية الرجل دون غيره لامرأة بعينها من مسائل الشرف لا تقل فى هذا عن افتخار الرجل بشجاعته أو استقامته ، وأضحت المبارزة للاحتفاظ بالشرف عاملا أساسيا فى الحياة الأسبانية . وكان امتزاج الدم الأوربى بالدم الأفريقى والسامى ، والثقافة الغربية بالثقافة الشرقية ، والأساليب السورية والفارسية بأصول الفن القوطى ، والخشونة الرومانية بالعواطف الشرقية ؛ كان هذا الامتزاج هو الذى تولد منه الخلق الأسبانى ، والذى جعل الحضارة الأسبانية فى القرن الثالث عشر عنصراً فذاً بارزاً فى موكب الحياة الأوربية .

الفصل الثالث عشر

البرتغال ١٠٩٥

سُرَّ ألفنسو السادس ملك قشتالة وليون فى عام ١٠٩٥ من الكونت هنرى البرغندى أحد الفرسان الصليبيين الأسبان سروراً جعله يزوجه بابنته تريزا ، وأن يجعل من بائنتها مقاطعة من مقاطعات ليون تدعى البرتغال(*) أعطاه إياها إمارة إقطاعية . ولم يكن هذا الإقليم قد استرد من المسلمين إلا قبل ذلك الوقت بإحدى وثلاثين سنة ، وكان المسلمون لا يزالون يحكمون جزأه الواقع جنوب نهر منديجو Mondego . وساء الكونت هنرى أن يكون أقل من ملك ، فأخذ هو وزوجته منذ قرانهما يأتمران ليجعلا من إقطاعياتهما دولة مستقلة ؛ ولما مات هنرى (١١١٢) واصلت تريزا سعيها لنيل الاستقلال ، وعلمت أعيان بلادها وأتباعها أن يفكروا على الدوام فى حريتهم القومية ، وشجعت مدنها على أن تحصن نفسها وتدرس فنون الحرب وأساليبها ، وقادت بنفسها جنودها فى حرب إثر حرب ؛ وكانت فى فترات السلم تحيط نفسها بالموسيقيين ، والشعراء ، والعشاق(٩٣) . وهُزمت ، وأُسرت ، ثم أُطلق سراحها ، وأعيدت إلى إقطاعياتها ؛ وأنفقت المال جزافاً فى حب محرَّم ، وخُلعت عن عرشها ، ونُفيت مع حبيبها ، وماتت فقيرة معدمة (١١٣٠) .

وكان إلهامها واستعدادها هما اللذين أمكنا ولدها أفنسو الأول هنريك Affonsol Henriqnes (١١٢٨ — ١١٨٥) أن يحقق أغراضه : ذلك أن ألفنسو السابع صاحب قشتالة وعده بأن يعترف به حاكماً مستقلا تام السيادة على جميع البلاد التى ينتزعها من المسلمين جنوبى نهر الدوو . فهاجم هنرى المسلمين

(*) هذا الاسم مشتق من ثغرها المسمى پورتس كالى Portus Cale عند الرومان والمسمى اليوم أپرتو Oporto (الثغر) .

بكل ما ورثه عن أبيه من شجاعة وتهور ، وعن أمه من روح عالية وصلابة ، وهزمهم فى أوتريك Outrique (١١٣٩) ، ونادى بنفسه ملكا على البرتغال . وأقنع رجال الدين الملكين بأن يعرضا الأمر على البابا إنوسنت الثالث ، فكان حكمه لصالح قشتالة ، فما كان من أفنسو هنريك إلا أن نقض هذا الحكم بأن عرض مملكته الجديدة على البابا إقطاعياً له . وقبل إسكندر الثالث هذا العرض واعترف به ملكاً على البرتغال (١١٤٣) على شريطة أن يؤدى جزية سنوية إلى كرسى رومة(٩٤) . وواصل أفنسو هنريك حروبه مع المسلمين ، واستولى على سنترِيمة Santarem ولشبونة ، ومد رقعة مملكته إلى نهر التاجه Tagus . ووصلت البرتغال فى عهد أفنسو الثالث (١٢٤٨ - ١٢٧٩) إلى حدودها الأرضية التى لها فى الوقت الحاضر ، وأصبحت لشبونة ثغرها وعاصمتها لموقعها الحربى على مصب نهر التاجه (١٢٦٣) . وتقول إحدى الأساطير القديمة إن يولسيز - أوديسيوس Ulysses - Odysseus ، هو الذى أنشأ المدينة وسماها باسمها القديم يولسپو Ulissipo الذى حرفه الناس فيما بعد بإهمالهم فكان أولسپو Olisipo أو لشبونة Lisbon .

ونغصت سنى أفنسو الثانى الأخيرة الحربُ الأهلية التى شبت نارها بينه وبين ابنه دنيز Dinliz الذى كان يأخذه العجب من أن والده قد طال عمره أكثر مما يجب . وانتقل دنيز من هذه البداية المريبة إلى حكم صالح طويل (١٢٧٩ - ١٣٢٥) عقد فيه الصلح بين ليون وقشتالة بحلف بينهما سببه الزواج ، وامتنع النزاع بينه وبين وارث آخر للعرش بفضل توسط إزبل Isabel ، زوجة دنيز الصالحة ، وترك دنيز مجد الحروب ووجّه جهوده إلى إصلاح حال بلاده من الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، فأنشأ مدارس زراعية وعلّم الأهلين طرقاً للزراعة خيراً من الطرق التى كانوا يجرون عليها ، وغرس الأشجار لتمنع تعرية التربة ، وشجع التجارة ، وأنشأ السفن والمدن ، ونظم للبرتغال أسطولا حربياً ، وعقد

معاهدة تجارية مع إنجلترا ، فاستحق بذلك اللقب الذى أطلقه عليه شعبه حباً فيه وهو Re Lavrador أى الملك العامل . والحق أنه كان إدارياً مجدًّا ، وقاضياً عادلا ، يعين الشعراء والعلماء ، وقد كتب هو أحسن ما كتب من الشعر فى زمنه وبلاده ، وبفضله ارتقت اللغة البرتغالية ، فلم تعد كما كانت من قبل لهجة جاليقية بل أضحت لغة أدبية ؛ وقد صاغ فى أغانيه الرعوية pastorellas أغانى شعبه صياغة أدبية ، وشجع الشعراء الغزلين فى بلاطه على أن يتغنوا بمباهج الحب وآلامه . وكان دنيز نفسه عليما بأحوال النساء ، وكان يفضل أبناءه غير الشرعيين على ابنه الشرعى الوحيد . ولما أن خرج هذا الابن على أبيه ؛ وحشد جيشاً ليخلع به أباه عن عرشه ، ركبت إزبل ، وكانت تعيش بعيدة عن مرح بلاط الملك ومباهجه ، ووقفت بين القوتين المتحاربتين ، وعرضت أن تكون أولى ضحايا نزاعهما وعنفهما . فاستحى زوجها وابنها من فعلهما وامتنعا عن القتال (١٣٢٣) ؛